مطلع الشمس

حضرة مولانا المارشال

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: حضرة مولانا المارشال مطلع الشمس
التأليف: أحمد أمين حبيب
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 200 صفحة
عدد الملازم: 12.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-89-4

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

محفوظة جميع الحقوق

رواية

مطلع الشمس

حضرة مولانا المارشال

الجزء الثاني

تأليف

أحمد أمين حبيب

الرواية مسجلة بالمجلس الأعلى للثقافة - إدارة حقوق المؤلف - جمهورية مصر العربية تحت رقم: 203 لسنة 2024

دار البشير

جميع الأعمال العلمية الأثرية والكتب والمراجع
التاريخية المذكورة في الرواية حقيقية

إنَّ من يُسيطر على الماضي يُسيطر على المستقبل،

ومن يُسيطر على الحاضر يُسيطر على الماضي.

جورج أورويل

الفصل السادس عشر

منطقة أستورياس – إسبانيا – القرن الثامن الميلاديُّ

ركض الجنديُّ القوطيُّ بأقصى ما يمكنه مخترقًا ممرات المغارة الجبلية، وعلى الرغم من الظلام الدامس كان يعرف موضع خطواته جيدًا. انتهى به المطاف في مكان ضيق تفوح منه رائحة عطِنة، ودماء مختلطة بأنفاس ثقيلة تَصدُر من أجساد هزيلة شَحَب لونها وامتُقع. كانوا بضعة رجال ونساء التفوا حول جذْوة نار صغيرة أوشكت على الخمود مثل أرواحهم البائسة. انحنى الجنديُّ أمام رجل ضخم البنيان أشقر الشعر له ملامح صارمة جامدة، وإن بَدَتْ على مُحيَّاه أمارات الإنهاك والإعياء الشديد. التقط الجنديُّ أنفاسه لثوانٍ قبل أن يقول بغبطة طاغية:

– سيدي بلايو، العرب يرحلون، بدأوا تفكيك معسكرهم الآن، الثلوج أعيتهم واشتدت عليهم.

تعالت صيحات الفرح المبتهجة وبدأ بعضهم في التقافز من مكانه بسعادة، في حين ظل بلايو جامدًا مكانه من دون أن تتغير ملامحه، فقط التمعت عيناه الزرقاوان ببريق غامض وقال بصوت قويٍّ أجبر الجميع على الصمت والإصغاء:

– سرعان ما سينجلي الشتاء، ويذوب الجليد ثم يُعاود العرب الكرَّة، هذه المرة أفنوْا قواتنا، لم يتبقَّ منا سوى بضعة من الرجال والنساء، المرة القادمة لن يغادروا قبل استئصال شأفتنا تمامًا.

تحفَّزت امرأة أربعينية، جلدة، بيضاء باهتة كالشمع، وصاحت بغضب مستنكرة:

– ما الذي ترمي إليه بقولك؟ هل سنتخلى عن المقاومة؟ سنحشد رجالنا ونؤلِّب الناس على العرب ونشعل نار الحرب من جديد.

ارتكن بلايو بظهره على الجدار وعيناه تتنقلان في الأجساد الهشة الهزيلة من حوله. التقط نفسًا عميقًا وقال بصوت مرهق:

– طال علينا الأمر ونحن متحصنون بهذه الجبال، أعوام انصرمت وتآكلت ببطء بشِع، شابت خلالها الرؤوس وهرمت الأرواح وذبُلت القلوب، وانطفأت في عيوننا جذْوة الأمل، أجسادنا مُثْخَنة بالجراح ونفوسنا عليلة خائرة، وما من معجزة مأمولة تنتشلُنا مما نحن فيه في القريب العاجل.

ضرب الذهول وجوه من حوله وراحوا يتبادلون نظرات استغراب. صكَّت المرأة الشاحبة وجهها، وشعرت كما لو أن جسدها يتضعضع جرَّاء كلمات بلايو. زحفت تجاهه ببطء وعيناها تشتعلان بغضب هادر. أمسكت بذراعه وهزَّته بعنف وأصابعها تغوص في لحمه بشراسة وعيناها تحملقان في عينيه بتحدٍّ قبل أن تجمجم:

– أتُراكَ سئمت المقاومة، واشتقت إلى حياة الدَّعة والترف، حسنًا، لتسلمْ رايتك ودعْنا نكمل نحن دربنا، أما أنت فأعْلن للعرب إذعانك واستسلامك، علَّهم يرضون عنك ويتخذونك من مواليهم، كما فعلوا مع غيرك.

قالتها بحدة وعصبية فيما لم تتغير ملامح بلايو. ظل على هدوئه وثباته والمرأة تُفلت ذراعه وترتكن إلى الحائط جواره وهي تقول بحزن بالغ:

– لست بلايو الذي عرفته وعشقته، لست بلايو الثائر الغاضب، لست بلايو الذي أقسم على قبر سانت ياقب ألا تخمد فوْرته، ولا تسكن نفسه ولا يهدأ جرسه حتى يقتلع العرب من إسبانيا، ما الذي مسَّك وأصابك حتى تهذي بتلك الكلمات يا زوجي العزيز؟!

لم يرد بلايو لفوْره راح يرمق جذوة النار بشرود وسقط في حالة من التفكير العميق. فكرة ما ظلَّت ترواده شهورًا طويلة، قلَّبها في رأسه مرارًا وتكرارًا، نسج خيوطها ورسم ملامحها، وتركها حتى اختمرت ونضجت وتبلْورت في عقله وصارت متحفزة متأهبة للتنفيذ. التقط نفسًا عميقًا وهو يرفع رأسه ببطء فيما انتبهت الحواس وتحفَّزت العقول وهو يقول:

– لو ظللنا على نفس نهجنا في المقاومة سنهلك لا محالة، يجب أن نغير وضعيتنا، إذا ارتكنَّا واعتمدنا على وعورة الجبال وقسوة الجليد في كل مرة فسرعان ما سيعتاد العرب الأمر وسيطوِّرون وسائلهم وعندها لن نقوى على الاستمرار.

– وما الحيلة إذن؟

أطلق تنهيدة عميقة وهو يجيب:

– إن الريح الشديدة لا تعبأ بضعيف الحشيش، ولا تأبه له، لكنها تُحطِّم عظيم الشجر، وتقلع الدَّوحة العظيمة من منبت جذورها، لذا ينبغي أن نتقوقع على أنفسنا قليلًا وأن ننزوي في ركن مُهمَل حتى يصغر شأننا في عين العرب ويستهينوا بنا، فيأمنوا جانبنا، ويغفلوا عنا، وخلالها ننمو ببطء شديد، ولكنه فعَّال وراسخ، نمد جذورنا حتى أعمق أعماق الأرض، حتى يصير اجتثاثنا ضربًا من الخيال وفعلًا من المستحيل.

– وأنَّى لنا ذلك؟

– سنغير وضعية القنفذ إلى وضعية الثعلب.

اعترتْ الدهشة الوجوه الشاحبة الباردة وهمَّت المرأة بالتساؤل ثانية لولا أن استطرد بلايو بقوة:

– القنفذ يمتاز بأشواكه المنيعة التي تكْفُل له حصنًا هائلًا يقيه خطر أعدائه، فلا يجرؤ أحدهم على الاقتراب فضلًا عن النيل منه. لكن القنفذ لا يمتلك غير هذا السلاح، ومع الوقت وكلما زادت جراح أعدائه أرغمهم الأمر على ابتكار وسائل تمكنهم من التغلب عليه، وسرعان ما ينجحون في ذلك، ويتمكنون من اختراق حصنه المنيع، أما الثعلب ففي جعبته آلاف الحيل، ولا يلجأ إلى حيلة مرتين، فلا يدرك عدوُّه أيَّ حيلة سيستخدمها للفرار والمرواغة، وهذا يمنح الثعلب دائمًا نقطة تفوُّق على خصمه.

– أفصح أكثر بلايو:

– العرب تقول إذا لم تغْلب فاخْلب، أي فاخدع.

– ماذا؟

تساءلت المرأة بدهشة فهزَّ رأسه وقال بقوة:

– سنتحول إلى ضباب نسير ونتحرك، الكل يرانا، لكنَّ أحدًا لا يعرف من أين نأتي ولا أين نذهب، ولا أحد يقدر على الإمساك بنا، سنكمِن لهم ونتربص بهم حتى نجد منهم غفلة ننتهزها وعثْرة نختلِسها، سنطور أساليبنا ووسائلنا، لن نظل متحصنين معتصمين بالجبال فقط، سنغادر تلك الجبال وسننتشر في كل مكان، في كل قرية ومدينة، في كل شبر من أنحاء إسبانيا.

سنعمل في سرية تامة مستترين بالظلام، سنهبط أسفل الأرض ونتحرك بحرية كاملة، نخطط وندبر حتى تقوى شوكتنا وتستفحل قوتنا وحينها نظهر غضبتنا وثورتنا.

توقف ملتقطًا أنفاسه على حين حلَّ الصمت وامتلأ الجو بالأنفاس الثقيلة، بينما تواثبت النظرات من العيون محاولة النفاذ إلى عقل بلايو ومعرفة ما يختمِر داخله.

- وكيف يتأتى لنا ذلك؟

قالتها المرأة بفضول بالغ، فسحب بلايو من جواره صندوقًا معدنيًّا صغيرًا، فتحه برفق وأخرج من داخله لفافة قماشية فضَّها ليظهر بداخلها جمجمة بشرية يخترقها صليب. وضعها أرضًا أمام العيون المشدوهة ثم قال بصوت جافٍّ عميق:

- سنؤسس من تلك اللحظة أخويتنا السرية أخوية الصخرة.

* * *

الفصل السابع عشر

واصل الدكتور تصويب البندقية على رأس خميس الذي راح يردد الشهادتين برعب واضح.

لكن بحركة خاطفة أدار الدكتور فوهة البندقية ناحية الخفيرين وأطلق رصاصتين استقرتا في رأسيهما وصرعتهما على الفور. قبل أن يفيق خميس مما يجري طرحه أحد الرجال أرضًا فعاجله الدكتور بضربة عنيفة بكعب البندقية على مؤخرة رأسه فسقط مغشيًّا عليه والدماء تسيل منه بغزارة.

أطار صوت الرصاص صواب زغلول فركض عائدًا ناحية هيام التي وضعت يدها على فمها لتمنع نفسها من الصراخ بينما احتضنها زغلول وهو يخفض رأسها وقد بلغ بهما الرعب مداه وهما يشاهدان الدكتور بقناعه الجامد وملابسه القاتمة يغادر هو ورجاله المكان متوجهين ناحية السيارات، فسرت رجفة هائلة في قلبيهما. ثوانٍ وانطلقت السيارات مسرعة مغادرة المكان فتابعاها حتى اختفت عن أعينهما ثم ركضا سريعًا نحو المقبرة، وما إن اقتربا وشاهدا الجثامين الملقاة أرضًا حتى صرخت هيام بجنون:

- خميس اتقتل....

قالتها واندفعت نحوه. صكَّت وجهها، وهرعت مُلقية بنفسها عليه وراحت تهزُّه بعنف مواصلة صراخها:

- خميس اتقتل.

دبَّ الذُّعر في قلب زغلول وكاد أن يسقط مغشيًّا عليه لولا أن تماسك وأزاح هيام جانبًا وراح يتفحص خميسًا بلهفة:

- خميس عايش ممتش، ده مُغمى عليه بس.

تناول زجاجة مياه ملقاة بجواره وسكبها على رأس خميس الذي بدأ في الاستفاقة وهو يُسعِل بينما تعلَّقت عيني هيام به وراحت تنتحب بشدة. فتح خميس عينيه وتأوَّه بصوت خفيض متحسسًا رأسه وهو يتأمل الاثنين:

- هيام إيه اللي جابك إنتي وزغلول؟

صرخت بفزع وهي تحتضنه ملقية بوابل من التساؤلات دفعة واحدة:

- فيك إيه؟ إنت كويس؟ وإيه اللي بيحصل ده؟

تأمل المشهد حوله وعيناه تدوران بذهول:

- سرقوا المقبرة وقتلوا الغَفَر اللي معايا.

تأملوا المكان حولهم بهلع تنخلع له القلوب، فيما قام زغلول بربط جرح خميس بمنديله:

- لازم نروح الوحدة الصحية حالًا، الجرح لازم يتخيط.

قالها زغلول وهو يعاون خميس على النهوض فقال الأخير بتخوف:

- لازم نبلغ الحكومة الأول.

صرخت هيام:

- هنبلغ واحنا في الوحدة، دمك بينزف جامد.

تحرك الثلاثة بسرعة وخميس يستند على كتف زغلول. ابتعدوا بضع خطوات فالتفت خميس خلفه متأملًا المشهد بقلب مرتجف. لم تكن هذه ليلة المارشال كما تمناها.

* * *

استرخى الدكتور في المقعد الخلفيِّ في السيارة وهو يُطلق تنهيدة حارَّة طويلة. شعر وكأنَّ عبئًا ثقيلًا أُزيح عن كاهله. رَبَتَ على الصندوق الذهبيِّ برفق ومرَّر يده عليه يتفحصه بدقة ثم حمله بكلتا يديه ووضعه على قدميه وبيد مرتجفة أزاح الغطاء ببطء وهو يزفر بحرارة. لكن فجأة انتفض جسده بعنف هائل وأطلق صرخة غضب عاتية أصابت قائد السيارة بالذُّعر فاختلت عجلة القيادة في يده وضغط المكابح بقوة فدارت السيارة حول نفسها عدة دورات عنيفة قبل أن يتمكن من السيطرة عليها بصعوبة ويُوقفها إلى جانب الطريق. توقفت السيارات الأخرى وترجَّل منها ركابها بقلق ليتحسسوا خبر ما جرى ويتفقدوا الدكتور الذي لم يرفع عيناه عن الصندوق الفارغ وهو يصرخ غاضبًا:

- البرديات اختفت.

تبادل الرجال نظرات دهشة ممزوجة بفزع ضرب قلوبهم وعقولهم ولم يجد أحدهم جوابًا.

* * *

أنهى الطبيب تقطيب جرح خميس وهيام واقفة إلى جواره تنساب دموعها في صمت، بينما ارتسمت على وجه خميس أمارات حيرة بالغة وتفكير عميق فيما جرى.

وقف زغلول خارج الحجرة في حالة من الذهول غير قادر على استيعاب ما حدث حتى هذه اللحظة. اقترب منه الشاويش عليٌّ والتوتر والاضطراب يقطران من وجهه العجوز الشاحب:

– إيه اللي حصل يا واد يا زغلول؟

– الاتنين الغفر اللي مع خميس اتقتلوا، والمقبرة اتسرقت.

مسح الشاويش عرقه وهو يتمتم بذُعر:

– دي مصيبة إيه دي بس يا ربي، أنا لسه جاي من هناك وشفت كل حاجة، الدنيا مقلوبة ومساعد الوزير زمانه على وصول.

اضطرب زغلول وتساءل بتوتر:

– وإيه العمل يا شاويش علي؟

– فيه أمر بالتحفظ عليكم أنتوا التلاتة

دبَّ الذُّعر في قلب زغلول:

– ليه؟

– أنتوا المشتبه فيهم دلوقتي، ولازم يتحقق معاكم ونيابة وسين وجيم وحكايتكم هتبقى حكاية سودة مهببة.

أثارت كلماته فزع زغلول فانتفض قلبه وولول بجزع:

– يا نهار أسود، إزاي الكلام ده؟

– زي ما بقولك كدا، وفيه قوة من المركز جاية حالًا تاخدكم، الموضوع كبير يا زغلول ده قتل وسرقة آثار.

غادر الطبيب الحجرة فدفع الشاويش زغلول إلى الداخل بحدَّة وأوصد الباب خلفه بعنف.

تساءل خميس بقلق:

- في إيه يا زغلول؟

نقل إليهم كلام الشاويش علي فكسا الوجوم وجوههم وخميس يتمتم:

- روحت في داهية يا خميس، كان مستخبي ده كله فين يا ربي.

زاغت عينا هيام وكاد يُغشى عليها لولا أن تمالكت نفسها بالكاد وقالت بصوت مُفعم بالخوف:

- احنا هنشهد معاك يا خميس، وهنقول على اللي شفناه.

صاح زغلول بحدَّة:

- الحكومة هتعتبرنا شركاته، يعني احنا كمان هنتشعبط معاه في حبل المشنقة.

صمت هُنَيْهَة ثم تابع بما يشبه البكاء:

- يا ريتني ما سمعت كلامك يا هيام، مكنش ده كله حصل.

نهض خميس من مكانه وهو يقلِّب بصره فيهما قائلًا بتوتر:

- لازم نهرب حالًا لحد ما نشوف حل.

رد عليه زغلول بضيق بالغ:

- نهرب إيه، الشاويش علي قفل الباب وواقف عليه من برا.

صوَّب خميس بصره ناحية النافذة فالتاع زغلول:

– أنت مجنون، احنا تاني دور.

توجه خميس ناحية النافذة وفتحها بحذر متفحصًا الشارع ومن بعيد لمح إضاءة رتْل من السيارات تقترب، خمَّن على الفور أنها سيارات الشرطة.

– وله يا زغلول، الشباك مش عالي أوي، أنا هنزل وأنت أمسك إيدي، وافرد دراعك لآخره، وبعدين هنط أنا باقي المسافة، وبعدين هيام تنزل وأنا ألقفها من تحت، وأنت من بعدها.

بدا التردد على وجه زغلول وهمَّ بقول شيء ما لولا أن صاح خميس بحدَّة:

– مفيش وقت، يا نتعلق من الشباك، يا نتعلق في حبل المشنقة.

حسمت كلماته الأمر فاندفع الثلاثة ناحية النافذة، لم يكن الأمر عسيرًا. فعلوا كما شرح خميس. دقائق قليلة وكانوا يهرولون على الطريق العموميِّ خارج البلدة. مرت بهم سيارة نصف نقل أشاروا لها فتوقفت.

– على فين يا أسطى:

– نازل مصر.

– ينوبك ثواب خدنا معاك.

* * *

جلس ثلاثتهم في الصندوق الخلفيِّ للسيارة والصمت يُطبق عليهم، لا يقطعه سوى بكاء هيام ونحيبها، بينما أخذت الهواجس والشكوك تعتمل وتضطرب في عقل خميس. وهو يحدث نفسه:

– خانك حظك هذه المرة أيها المارشال، فيما سبق كان حظك وقدرك يسعفانك وينجداك، أما الآن آهٍ من الآن. رقبتك أصبحت قاب قوسين أو

أدنى من حبل المشنقة، وليتها رقبتك وحدك، الفتاة المسكينة وأخوها صارا معك، ليدفعوا الثمن نفسه. ثمن البطولات التي كنت تبحث عنها.

سكنت هواجسه قليلًا وهو يتأمل الطريق من حوله ثم عادت تندلع في رأسه مجددًا:

– لكن أيُّ ثمن؟ ولِمَ؟ وما ذنبنا فيما يجري، لكن أساسًا ما الذي يجري وما الذي يحدث؟ هل هو كابوس من تلك الكوابيس التي تطاردني منذ زمن، أم أنه حقيقة تفوق في فظاعتها أعتى الكوابيس وأقساها؟

قطع زغلول عليه حبل أفكاره المسترسلة وهو يتساءل بانهيار:

– هنعمل إيه دلوقتي؟

– هننزل مصر ونختفي في أي حتة كام يوم، لحد ما نشوف الدنيا هتروح بنا فين.

– هنروح فين واحنا معناش فلوس، احنا على الحديدة.

تمتم خميس بسذاجة:

– كنت لسه هقبض بكرا، مكنش ولاد البلغة دول يستنوا لحد ما أقبض.

خلعت هيام خاتمًا ذهبيًّا من إصبعها وناولته لخميس:

– بيع ده لما نوصل مصر، ونمشي نفسنا بفلوسه.

تبسم قائلًا:

– أصيلة يا هيام، إن شاء الله أجيبلك أحسن منه.

تناست هيام ما هم فيه وابتسمت قائلة بدلال:

– تعيش وتجيب ليا يا مارشال، ما هو كله من خيرك.

لم يتمالك زغلول نفسه وهو يتابع الموقف بغيظ فانفجر فيهما:

– يا خويا اتنيل إنت وهي، هو ده وقته، بس افلت أنت من حبل المشنقة الأول وبعدين ابقى شوف هتجيب إيه، ولا حتى الله لا يجعلك تجيب خالص، ده أنت هتجيبنا الأرض.

زاد انفعاله وهياجه:

– مين دول يا وله؟ وكانوا عايزين منك إيه؟

أجابه خميس بحدَّة وهو يُشيح بيده:

– وأنا إيه عرفني، أنا كنت قاعد في حالي أنا والمراحيم اللي معايا، وفجأة ظهر لنا الجوست

قاطعه زغلول مستفسرًا بقلق:

– إيه الجوست ده يا وله؟

– الشبح اللي كان لابس أسود.

وكزه زغلول في كتفه بغيظ:

– يا ابن البلغة هو وقت فذلكة، ما تقول الرجل اللي لابس أسود.

صاح خميس في انفعال:

– هو الزفت ده، نزل المقبرة جاب صندوق مش عارف فيه إيه، وبعدين طلع ضرب الغفر بالنار من بندقيتي، وخبطني على راسي ولما فُقت لقيتك أنت وهيام عندي.

تساءلت هيام بقلق:

- ودول يطلعوا مين؟

- مش عارف، الغريب أنهم سابوا الدهب والمساخيط اللي في المقبرة، وخدوا الصندوق ده بس، أموت وأعرف كان فيه إيه؟

تبادل زغلول وهيام النظرات فتساءل خميس بتوتر:

- مخبيين عني حاجة يا جوز الرزايا؟

ابتسم زغلول ببلاهة:

- أنا عارف الصندوق كان فيه إيه.

تساءل خميس في ذهول:

- وعرفت إزاي؟

اعتدل زغلول جالسًا على ركبتيه ورفع جلبابه لأعلى فصاح خميس محتدًّا:

- بتعمل إيه يا رزية، بتقلع أدامنا ليه؟

لم يُجبْه زغلول. دسَّ يده في سرواله وطفق يحركها يمنة ويسرة حتى قبض على شيء فابتسم ونزع يده من سرواله لتظهر مجموعة برديات ملفوفة ومربوطة بإحكام. لوَّح بها في وجه خميس الذي هتف بانبهار:

- إيه ده يا واد يا زغلول؟

- الحاجة اللي كانت في الصندوق.

- وجبتهم إزاي؟

اتسعت ابتسامة زغلول وراح بزهوٍ يحكي ما جرى:

– لما وصلت أنا وهيام عند المقبرة كان واحد من رجالة الجوست بيحط الصندوق في العربية، وبعدين رجع تاني عند المقبرة، أنا بقى روحت العربية أشوف فيها إيه، لقيت الصندوق وفتحته، ساعتها حسيت كأن حد جوايا بيقولي خد الحاجات دي، روحت واخدهم ومخبيهم في اللباس.

تشمَّم خميس رائحة البرديات بتأفُّف:

– الله يقرفك، أتاري ريحتها معفنة.

– يا جدع دي ريحة المقبرة.

– ما هي فعلًا ريحة المقبرة.

قالها خميس ثم ابتسم بفرح مردفًا:

– أهي دي بقى دليل براءتنا.

صاحت هيام بلهفة:

– بجد. إزاي يا خميس؟

أجابها بسذاجة:

– مش عارف، بس ما دام عملوا كل ده عشان ياخدوا البرادي تبقى مهمة أوي بالنسبة لهم.

تساءل زغلول في حيرة:

– أيوه، يعني احنا دلوقتي هنعمل إيه بالبرادي دي؟

– نوصل مصر وهناك ربنا يحلها.

* * *

الفصل الثامن عشر

وصل الثلاثة القاهرة مع أولى بشائر الصباح فاستقبلتهم بموج بشريٍّ هادر. مزيج هائل من الأصوات والهمسات والغمغمات والصيحات، روائح مختلفة، ووجوه متباينة عابسة ومرحة، زحام لم يعتدْه خميس ورفقته. بالكاد أفلتوا منه واستقروا قرب شاطئ النيل في مكان منعزل. فرد زغلول أمامهم لفافة تحوي شطائر فول وطعمية راحوا يلتهمونها بنَهَم. مسح خميس فمه بكم جلبابه وهو يتساءل:

– عايزين نشوف مكان نبات فيه لحد ما ندبر أمورنا.

– نشوف لوكاندة رخيصة.

قالها زغلول وفمه ممتلئ بالطعام فرد عليه:

– مش هينفع يا فالح، اللوكاندة بتحتاج البطايق الشخصية والمخبرين بيكونوا مرشوقين هناك.

نقلت هيام بصرها بين الاثنين وقالت:

– يبقى مفيش غيره.

– مين؟

تساءلا بلهفة فأجابتهما هيام بثقة:

– محروس ابن خالتي.

– أعوذ بالله، ده بني آدم غلس وقتم ودمه تقيل.

قالها خميس فوافقه زغلول بإيماءة من رأسه بينما طفقت هيام تقول:

- بس جدع وطيب، ومش هيتخلى عنا.

- ده مش بعيد هو اللي يبلغ عنا.

قالها زغلول ضاحكًا متهكمًا، فصاحت هيام بحزم:

- مش وقت هزار، منعرفش حد هنا غير محروس، قلتوا إيه؟

بدا التردد على وجه خميس قبل أن يقول بقلق واضح:

-بصراحة أنا مقلق من موضوع محروس ده.

- طب وإيه العمل، هنروح فين؟

تساءلت هيام بانزعاج فلم يجد خميس ما يقوله. راح يُعمل فكره وهو يتبادل نظرات صامتة مع زغلول ثم أخذ يمطُّ شفتيه والحيرة تغرق ملامحه وتتجلَّى على قسماته. لكن بغتة ومضت عيناه بشدة وقفز من مكانه قائلًا بابتهاج وغبطة:

- أنا عارف هنروح فين.

- فين يا خميس؟

تساءل الاثنان بلهفة ممزوجة بسعادة أن وجدوا ملاذًا لهم فاتسعت ابتسامة خميس وراح يخبرهم.

* * *

عدل الحاج عمران رابطة عنقه وهو يهم بمغادرة مكتبه متوجهًا إلى صالة الانتظار بصحبة سكرتيره الخاص الذي أخبره لتوِّه أن ثلاثة من أهل بلدته يودون لقاءه لأمر مهم وخطير. تململ الرجل بداية وتذمَّر وفكَّر في صرفهم

بحجة انشغاله قبل أن يعدِل عن رأيه سريعًا ويقرر رؤيتهم ويعدها فرصة سانحة لعمل دعاية له داخل قريته التي لم يطأها بقدمه منذ فوزه بمقعد البرلمان. كان يُحدِّث نفسه وهو يغادر مكتبه أنه لا ضير من قضاء بعض الوقت في الاستماع لهؤلاء القرويين السُّذَّج آملًا أن يعودوا إلى قريتهم قاصِّين على أهلها خبر الاستقبال الحافل والمقابلة الحارة الودودة التي لاقوها من نائبهم المبجَّل. يروق القرويون تلك البهرجات الخادعة بغض النظر عن أي أمور أخرى، لكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح وعمران يدلف إلى صالة الانتظار مشاهدًا خميس ورفقته يقفون متأملين الرجل وابتسامة بلهاء تعلو وجوههم. أخذته المفاجأة فاختلَّ توازنه وكاد أن يتعثر ويسقط أرضًا لولا أن تمالك نفسه بالكاد وتعلَّق بمِرفق سكرتيره، الذي شعر بدوره أن هناك كارثة ستحلُّ أو حلَّت بالفعل. ترنَّح عمران وكأن صاعقة ضربت جسده فاقشعرَّ بدنه وأصدرت بطنه قرقرة حادة فيما تسارعت دقات قلبه وانهمر عرقه بغزارة وهو يتأمل بعيون مشدوهة الثلاث مصائب التي حلَّت على رأسه. حاول استجماع قواه وهو يصيح فيهم بغلظة:

– مصيبة إيه دي يا ربي. إيه اللي جابكم هنا؟ عايزين إيه مني يا شوية مجرمين؟

كان رده بمنزلة الطعنة التي لم يتوقعوها أبدًا. فوجئوا بتلك الحِدَّة والغلظة فتبدلت ابتسامتهم إلى نظرات انزعاج وخوف فيما أنشأ خميس يقول بلهفة وهو يقترب من عمران الذي تراجع خطوتين إلى الخلف في وَجَل:

– احنا ملناش دعوة باللي حصل. والله أبرياء ما قتلناش حد.

أجابه بفظاظة وهو يشيح بيده:

– مليش دعوة بالكلام ده، قوله للحكومة، أنتوا عايزين مني إيه؟

– عايزينك تساعدنا.

قالها خميس باستجداء بالغ وهو يرمق عمران بنظرات متوسلة ثم أتبع بلهجة يقطر منها الرجاء:

– احنا ملناش ضهر غيرك، لازم تقف معانا.

ازدادت صدمة عمران وتعاظم خوفه فراح يبتلع ريقه بصعوبة واحتقان وجهه يتفاقم وهو يتبادل نظرات قلِقة مع سكرتيره قبل أن يصرخ بحِدَّة واهتياج:

– وله يا خميس، أدامك دقيقة واحدة تكون برا المكتب أنت والمصايب اللي معاك، وإلا والله هطلب لكم الحكومة حالًا.

فَغَرَ خميس فاه من الدهشة بينما لطمت هيام على وجهها الشاحب الممتقع، فيما أخذ زغلول يتابع المشهد حوله بنظرات زائغة مضطربة وقد فقد القدرة على النطق.

– هتبلغ عنا يا حاج عمران واحنا اللي جايين نستنجد بيك؟!

– أومال عايزني أعمل إيه، ألبس معاكم في المصيبة السودة دي، دي سرقة آثار وقتل مش هزار.

ازدرد لعابه ثم لوَّح بيده بعصبية صارخًا:

– برا يا ولاد الكلب، برا.

قالها بصراخ عنيف ارتج له جسد الثلاثة فأخذوا يتبادلون نظرات ذاهلة حزينة قبل أن يجرُّوا أقدامهم وينسحبوا من المكتب من دون أن ينبِس أحدهم

ببنت شَفة. ألقى عمران بنفسه على مقعد جلديٍّ وهو يُجفِّف عرقه بمنديله وسكرتيره يتساءل بقلق:

- هما دول المتهمين بسرقة المقبرة؟

- أيوه. هما المعاتيه دول.

- طب كنا بلغنا عنهم وسلمناهم للشرطة.

- لا لا. مش عايزين دوشة وسين وجيم، والسيرة توصل البلد إني سلمتهم للحكومة، البلد رغاية والكلام يكتر واحنا مش عايزين كدا.

صمت قليلًا وراح يهزُّ رأسه بثقة.

- هما كدا ولا كدا هيتقبض عليهم بسرعة، دول شوية هطل.

تساءل السكرتير مندهشًا وهو يسحب كرسيًّا ويجلس بجوار عمران:

- وهما فعلًا اللي قتلوا وسرقوا المقبرة؟

انفعل عليه عمران بشدة:

- وأنا أعرف منين.

صمت قليلًا وهو يقلب الأمور في رأسه:

- المعاتيه دول صعب دماغهم توصلهم لكدا، كبيرهم يسرقوا عشة فراخ، الموضوع شكله كبير وهما اتورطوا فيه.

صمت قليلًا ثم التفت إلى مساعده بصرامة:

- إوعى حد ياخد خبر إن الأشكال دي جت هنا، مش عايزين دوشة حوالينا.

هزَّ الرجل رأسه محاولًا طمأنة عمران الذي أخذ يسب ويلعن ذلك اليوم الذي توسط فيه لخميس لشغل تلك الوظيفة. لكنْ بغْتة بزغ في رأسه هاجس مخيف جعله ينتفض كالملدوغ وقلبه يكاد يتوقف. ماذا لو ربطت الشرطة بين توسُّطه لخميس ومجيء الأخير إلى مكتبه اليوم، وهل من الممكن الشك أنه متورط في هذا الأمر. حاول نفْض الهاجس عن رأسه مستبعدًا وجود ما يدينه. لكن على الأقل تلك الجلبة حوله ستجبر الحكومة على النبْش خلفه، وهو خلفه الكثير والكثير الذي ظل سنوات مستترًا عن الأعين، لكن يبدو أن خميسًا حرَّك زِر الستار ولفت الانتباه إلى عمران الذي وجد نفسه يصرخ بمقْت وغيظ:

– الله يخرب بيت معرفتك يا خميس، هتوديني في داهية يا ابن الكلب.

* * *

سار الثلاثة صامتين على غير هدى لا يدرون أين يقصدون، تركوا أنفسهم لخطواتهم تعبر بهم طريقًا تلو الآخر، وتعرج بهم من زقاق إلى حارة إلى شارع حتى وجدوا أنفسهم في نهاية المطاف أمام النيل. وقفوا يتأملون النهر الذي بدأ يكتسي بحُمرة منفرة بفعل الغروب. فيما استند خميس بمرفقيه على الحاجز الحديديِّ وراح يرمُق حافَّة الأفق بشرود مخيف. كان في حالة شديدة من السُّخط والغضب الذي اجتاح كيانه بأكمله. لم يسبق لهيام أن رأته على مثل هذه الحالة. كان مختلفًا خارجًا عن طوره. أحسَّت به وبانفعالاته وثورته الهوجاء التي تعتمل في صدره. أشفقت عليه وربَتَتْ على كتفه برفق وهي تغمز لزغلول الذي فهم مرادها فراح يُلقي بكلمات سلوان علَّها تفلح في تهدئة خميس وإخماد بركان غضبه.

– يعني كنت مستني إيه من الحاج عمران، البلد كلها عارفة إنه نتن وبتاع مصلحته.

أومأت هيام برأسها مؤيدة كلام زغلول وأضافت:

– ده رجل تاجر، حساباته كلها مكسب وخسارة مفيش في قلبه لا رحمة ولا شهامة، أنا كنت حاسة قبل ما نروح إنه هيعمل كدا.

لم يَرد خميس. طالت وهدة صمته وتحديقه في المياه الجارية أمامه قبل أن يلتفت إليهم ببطء وعيناه تومضان ببريق غامض أثار القشعريرة في جسديهما وهو يقول بصوت منكسر حزين:

– من صغري وأنا بشوف الحاج عمران في البلد، وكنت دايمًا أرمي عليه السلام، عمره ما رده عليَّا ولا بص ناحيتي، ساعتها كنت بفتكر كلمة أمي «الفقير ريحته وحشة»، مفهمتش معناها من أمي، لكن كنت كل يوم أستحمى مرة واتنين عشان الريحة الوحشة تمشي، لحد ما جه يوم معدي عليه صدفة أيام انتخابات ورميت السلام كالعادة، برضه ولا عبرني لحد ما واحد من رجالته مال على ودنه وقاله كلمة، فنادى عليَّا بسرعة تعالَ يا خميس، مالك كدا لابس جلابية مقطعة وحالتك تعبانة.

أخذ خميس يتحرك بجسده محاكيًا حركات عمران مقلدًا طريقته في التحدث رافعًا صوته عاليًا:

– الجلابية دي متليقش بك يا وله، خد حتة القماش دي، وفصَّل جلابية حلوة عليها القيمة، وعايز أشوفك بها في الانتخابات.

ارتفع صوته أكثر فالتفت إليه بعض المارة وتوقفوا لمشاهدة ما يجري، فيما تساقطت دموع هيام وأمسكت بكف خميس قائلة بجزع:

– خلاص يا خميس كفاية، الناس بتبص علينا.

سحب كفه من يدها وكأنه لم يسمع توسلها راح يُكمل بحزن ومرارة:

– خدت حتة القماش وطرت بها على الترزي، وأنا في الطريق سألت نفسي إيه اللي جرى، وإيه حنية قلب الحاج عمران دي كلها، واشمعنى دلوقتي، ما أنا طول عمري بعدي عليه بجلابيتي المقطعة، اشمعنى مخدش باله منها غير دلوقتي، ساعتها بس فهمت إني بقي ليَّا قيمة وتمن عشان ورقة بشلن اسمها بطاقة الانتخابات.

استبدَّ به الحزن فطفق ينشج في عنف والدائرة تتسع حوله من المارة بينما ألجمت الصدمة هيام وزغلولًا فظلَّا جامدين صامتين يرقبانه بعيون حزينة دامعة وهو يستطرد:

– عمران معتبرنيش بني آدم غير لما بقى محتاج للهيصة بتاعتي وصوتي في الانتخابات، ما حسش بجوعي وعَوَزي غير لما عرف إني بقى معايا الورقة أم شلن، ساعتها كساني وضحك في وشي ورد عليَّا السلام، والنهاردة عشان خاف على نفسه ومبقاش ليَّا لزمة عنده طردني وقالي يا ابن الكلب، دلوقتي بس فهمت يعني إيه الفقير ريحته وحشة، مش ريحة بدن، لا دي ريحة نفوس وأرواح، اللي زي عمران ميشمش غير ريحة الفلوس والسلطة والجاه، وأي حاجة غير كدا، ريحتها وحشة بالنسباله.

تصاعدت الهمهمات حولهم وبدأ البعض يتساءل عما يحدث، فتبرع أحدهم بالقول:

– شكله مجنون، الناس عقلها بيخف كتير اليومين دول.

لم تحتمل هيام الموقف فاندفعت ناحيته وجذبته من يده بقوة فاستسلم لها فسحبته خلفها وابتعدت مسرعة ومن خلفهما زغلول. ابتعدوا عن الزحام وأعين المتطفلين وجلسوا مرتكنين على سور الكورنيش وزغلول يُعلق بمرارة:

– كلنا زيك كدا متزعلش، مش أنت لوحدك اللي حصل معاه كدا. الغلابة زينا ميسووش حاجة عند العالم دي.

– احنا اللي اديناه الفرصة يعمل كدا يا زغلول، سكوتنا هو اللي طمعه فينا.

– وبإيدينا إيه بس نعمله؟

كوَّر خميس قبضته وانعقد حاجباه وقال بغضب:

– نقدر نعمل كتير، حقي مش هسيبه وهنتقم من عمران، وهخليه يندم على اللي حصل.

كاد قلب هيام يقفز من بين أضلاعها من شدة الخوف جرَّاء كلمات خميس ونبرته الثائرة. أخذت تُمعن النظر في وجهه، كم ودت في تلك اللحظة لو تقدر أن تنفُذ إلى دوامة هواجسه وتسبر غوره وتستشفَّ ما يجول بخاطره، فيما ارتجف زغلول وامتُقع لونه وتساءلَ بقلق بالغ خشية أن يكون خميس قد عزم على أمر متهوِّر:

– احنا غلابة، إيه اللي ممكن نعمله؟

– هعمل اللي يخلي عمران يندم على فعلته بدل المرة ألف.

وضعت هيام يدها على رأسها وصاحت بلوعة:

– ناوي على إيه يا خميس؟

صمت قليلًا وعاد إلى شروده المخيف وطفقت عيناه تلمعان كبرق غاضب قبل أن يقول بصوت عميق وبجدية بالغة:

– الانتخابات الجاية بعد أربع سنين، مش هنتخب الحاج عمران ولا أنت يا زغلول ولا هيام. يبقى يشوف ابن الورمة هيعمل إيه من غير أصواتنا.

كادت عينا هيام أن تقفز من محجريها من شدة الذهول وتدلَّى فكها لأسفل، فيما انتصب شعر رأس زغلول مصدرًا رائحة شياط وعيناه تدوران بشكل غريب قبل أن يستفيق من صدمته ليهوي بثُقل راحته بعنف على كتف خميس الذي تساءل منزعجًا:

– بتضرب ليه يا غبي؟

لم يحتمل زغلول الموقف، صرخ بانهيار وهو يعاود الضرب مجددًا:

– أنا برضه اللي غبي يا ابن البلغة، سيِّبت ركبي وفكرتك ناوي على مصيبة سودة، وقلت الواد هيروح يقتل عمران ولا يولع في مكتبه، تقوم تقولي بعد أربع سنين مش هنتخبه. على ما تيجي الأربع سنين هنكون بسبب غباوة أهلك اتعدمنا واترمينا في القبر والدود كل مننا لما زهق.

انفعل خميس وتساءل محتدًّا:

– أومال عايزني أعمل إيه؟

هاجت ثائرة زغلول وصرخ بغضب:

– متعملش حاجة خالص. من هنا ورايح تسمع اللي هنقوله وتنفذه بالحرف الواحد، كفاية مشي ورا دماغك وديتنا في داهية بغباوتك.

أخذت هيام تتابع الحوار الدائر بمزيج من الجزع والدهشة وعقلها يكاد يُجنُّ من فرط صدمتها في خميس الذي صاح بوجه مُحتقِن موجهًا سؤاله إلى زغلول بعصبية:

- طب قلنا العمل إيه دلوقتي يا أبو العريف؟

ارتبك زغلول واكتنفته الحيرة وكأن سؤال خميس فاجأه فضاقت عيناه وقال متلعثمًا:

- أيوه هقولك طبعًا هقولك.

تاهت منه الأفكار وحارت الكلمات وشعر أن عقله قد سُلب منه تمامًا فاستدار ناحية هيام مستنجدًا بها مستحثًّا إياها على التدخل في الحوار:

- قولي هنعمل إيه يا هيام؟

انتقل إليها الاضطراب والحيرة فمالت برأسها إلى الأمام ببلاهة وأخذت تحرك شفتيها محاولة النطق بشيء ما لكنها لم تفلح بداية فأخذت تبتلع ريقها لثوانٍ قبل أن تقول بتردد:

- مفيش غير حل واحد، نروح عند محروس.

حلَّ الصمت وبدا الوجوم على وجه الرجلين قبل أن يتساءل زغلول بقلق:

- متأكدة يا هيام؟

تعاظم قلقها وارتباكها لكنها حسمت أمرها سريعًا وصاحت بحزم:

- مفيش حل تاني.

سرت رجفة في جسد زغلول وهو يتأمل هيام. ودَّ لو أثناها عن قرارها هذا، لكن ما باليد حيلة، وليس هناك سوى محروس. فليكنْ وليلطف الله بهم.

* * *

بعد ساعة كان الثلاثة يقفون أمام شقة محروس في بولاق الدكرور والتردد بادٍ عليهم، تبادلوا نظرات قلقة فهزَّت هيام رأسها مشجعة خميسًا فضغط زر الجرس بأصابع متوجِّسة. لم يطلْ انتظارهم. ثوانٍ، وانفرج الباب عن شخص متوسط الطول ممتلئ الجسم نوعًا ما، يرتدي فانلة داخلية وبنطال ترنج، وتعلو وجهه نظارة سميكة. أصابه الذهول لرؤيتهم فتدلَّى فكه ببلاهة، وظل واقفًا متيبِّسًا كالتمثال يرمقهم بصمت. تَردَّد زغلول وهو يقول:

- ازيك يا محروس، يا يا ابن خالتي.

لم ينبِس محروس ببنت شفة، راح يتطلع إليهم لبعض الوقت قبل أن يشير لهم بالدخول مفسحًا الطريق أمامهم. تبادل الثلاثة نظرات قلِقة وهم يخطون بأقدامهم داخل الشقة، ومحروس يُوصد الباب خلفهم بالمفتاح. وقفوا في منتصف الصالة يتبادلون نظرات حائرة صامتة ومحروس يقترب منهم ببطء مسددًا إليهم نظرات صارمة، فيما ظهرت امرأة ثلاثينية من حجرة مجاورة رمتهم بنظرة هلع وراحت تلطم على صدرها بينما رفع محروس عقيرته بحدَّة:

- يا أهلًا. يا أهلًا بالقتلة المجرمين.

ولولت المرأة:

– أرقع صوت يا محروس وألم عليهم الناس؟

تمتم زغلول بخوف:

– مش قلت لكم، هيسلمنا لحبل المشنقة.

تقافز الخوف بين أضلاعهم وزوجة محروس تكرر نداءها فزجرها بحدَّة:

– عيب يا سهيرة، دول مهما كانوا قرايبي.

قالها وأطلق ضحكة عالية وتغيَّرت سحنته تمامًا واندفع معانقًا خميسًا وزغلولًا:

– منورين بيت أخوكم.

تبادلوا نظرات حذرة بينما خميس يسأله بتوتر:

– بتشتغلنا يا جدع أنت، لحد ما تسلمنا للحكومة؟

– عيب عليك يا مارشال ده أنتوا إخواتي.

تساءل زغلول بحذر:

– أومال إيه الدخلة دي؟

– شغال في السيما بقى ومأثرة فيَّا.

قالها ضاحكًا لمدة ثوانٍ ثم صمت بغتة واكتسى وجهه بجدية بالغة:

– أنا أساسًا من ساعة ما سمعت الخبر وأنا متأكد من براءتكم.

– بجد يا محروس؟

تساءلت هيام بفرح فأجابها بثقة:

– طبعًا، سُذَّج زيكم استحالة هما اللي يكونوا مدبرين لحاجة زي دي. عامة خدوا راحتكم الدار أمان.

التفت بعدها إلى زوجته قائلًا بكرم:

– جهزي العشا يا سهيرة، اقلي وحمري وشمري وروقي الدنيا.

سال لُعاب زغلول وخميس والأخير يقول:

– الله عليك يا أبو الواجب، حاكم احنا واقعين من الجوع.

– يا قلب أمك يا مارشال، بس متعشمش نفسك جامد، الحكاية كلها شوية بتنجان. آه، اوعى دماغك تروح بعيد.

بعد العشاء دارت عليهم أكواب الشاي بالنعناع الأخضر، فيما اندفع خميس يروي لمحروس ما حدث منذ البداية.

تأملهم بذهول ثم قال:

– ده الموضوع كبير أوي، الظاهر كدا والله أعلم إن أنتوا رايحين في داهية لا محالة.

انفعل عليه خميس:

– الله يبشرك بالخير يا أبو العريف، ده بدل ما تقول كلمة حلوة.

– كلمة إيه اللي حلوة يا خميس، ده كفاية الجوست اللي بتحكي عنه، شكله ابن حرام بزيادة، استحالة يسيبكم.

تساءلت هيام:

– خميس بيقول البرادي ممكن تثبت براءتنا .

– اسمها برديات، مش برادي، لكن عامة لازم نعرف اللي فيها الأول، ونشوف هنعمل بها إيه.

- وأنت متعرفش تقرأها يا سي محروس؟

تساءل خميس ببلاهة فتدلَّى فك محروس من الصدمة:

- أقرأ إيه يا مارشال ده هيروغليفي.

رد عليه خميس وسيماء الجِدِّ على وجهه:

- ما أنت برضه معاك دبلون، وده مش شوية، ولا إيه؟

صاح محروس محتدًّا:

- محدش يعرف يقراها غير متخصص، وأنا شغال كلاكيت مش عالم آثار، وبعدين دبلون إيه؟

بَتَر كلامه وراح يرمقهم بنظرات دهشة عارمة ثم قال بذهول:

- يا نهاركم أسود، أنتم ميح كدا خالص، سُذَّج للدرجة دي، مش عارفين حتى يعني إيه برديات ولا هيروغليفي.

أخذ الثلاثة يتبادلون نظرات حائرة بينما تظاهر خميس بالفهم وقال بفهلوة واضحة:

- يا سي محروس احنا عارفين كل حاجة، مش سواذج زي ما بتقول.

جحظت عينا محروس وهو يقول:

- سواذج! يا دين أمي.

- آه احنا مش سواذج، أنا بعون الله خدت من سنة شهادة نحو الأمية.

صرخ محروس متسائلًا بانفعال:

- نحو إيه يا خويا؟

رد خميس بثقة وزهو وهو يمطَّ حروف كلماته:

- نحو الأمية.

ولول محروس بجزع بالغ وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما:

- إنتوا إن شاء الله بدماغكم دي، في ظرف أسبوع هتكونوا نحو حبل المشنقة.

صاحت هيام غاضبة:

- أعوذ بالله من كلامك يا محروس.

ابتلع ريقه بصعوبة وبدا عليه الانزعاج:

- ياريتني كنت خليت سهيرة ترقع بالصوت وتلم الناس عليكم، وأسلمكم بنفسي بدل ما أموت مجلوط ولا مشلول، ولا ألبس معاكم في المصيبة دي.

أحسَّ خميس بتوتر الأجواء فغير دفَّة الحوار سريعًا وهو يقول بجدية:

- يعني من الآخر كدا احنا محتاجين حد بيفهم في البرادي قصدي البرديات.

- أيوه يا أنصح اخواتك.

ابتسم خميس بسذاجة:

- أنا عارف حد بيفهم فيها، بس معرفش عنوانه، ولا حتى أعرفه شخصيًّا.

تهكَّم محروس:

– أومال تعرف إيه، مقاس لا مؤاخذة لباسه؟!

صاح خميس:

– اتلم يا محروس فيه حريم قاعدة، أنا أعرف اسمه بس.

ابتلع محروس غيظه بالكاد وهو يقول:

– أنت أهبل يا وله، وده هتروح تقوله إيه، ده ممكن يبلغ عنك.

انفعل خميس وصاح بحدَّة:

– يا جدع أنت كله عندك كدا فال أسود، أنا هديك اسمه وشوف عنوانه وبعدين نشوف هنعمل معاه إيه.

– وده اسمه إيه يا فالح؟

– هات ورقة وقلم واكتب ورايا.

أمسك محروس بالورقة والقلم كاتمًا غيظه وقال وهو يكزُّ على أسنانه:

– قول يا مارشال:

هرش خميس في رأسه وهو يضع قدمًا على قدم قائلًا بجدية وثقة:

– أمليك الاسم حتة واحدة، ولا أتهجاه لك حرف حرف؟

انتفض محروس واقفًا بذهول ملقيًا الورقة والقلم أرضًا وهو يصرخ في زوجته:

– صوتي يا سهيرة، صوتي يا سهيرة.

فأطلقت المرأة صرخة شقَّت سكون الليل.

* * *

قبيل الفجر قادهم محروس إلى بناية قريبة، وصعد بهم إلى شقة صغيرة على السطح.

– الشقة دي هتقعدوا فيها، المكان هادي ومفيش حد غيركم هنا، وباقي العمارة كل واحد في حاله.

تجولوا في الشقة متأملين إياها بإعجاب. فهتف زغلول:

– والنبي أحسن من الدار عندي، ده حتى فيها دورة ميه.

أضاف محروس:

– والمكان أمان برضه، الشرطة لما هتعمل تحرياتها وتعرف إن لكم قرايب هنا، احتمال تراقب البيت عندي عشان كدا هقابلكم هنا كل يوم بالليل.

تساءل خميس بقلق:

– واحنا هنعمل إيه دلوقتي؟

– ولا أي حاجة، استنوا هنا لحد ما الأمور تهدى ويظهر لها ملامح، وانا هكلم كام حد من معارفي يشوفوا لنا عنوان ولا تليفون الرجل بتاعك.

غادرهم محروس فاستلقى خميس على الكنبة وبجواره زغلول وراح الاثنان يمدان أطراف الحديث. فيما توجهت هيام إلى المطبخ لتعد لهم الشاي وحديثهما يطرق مسامعها.

– شفت يا فالح، محروس اللي كنت خايف منه طلع مجدع ورجولة

تململ خميس وهو يجيب زغلول:

– ما هي فكرة هيام، قال يعني كانت فكرتك.

– طبعًا يا أبو جلهوم، مش أنا اللي وافقت عليها، مش أفكارك السودة ودماغك المهببة اللي كانت هتودينا في داهية.

وضع خميس ساقًا على الأخرى وراح يهزَّها وهو يقول بثقة عاتية وقد استفزته كلمات زغلول:

– يا أهطل أنت بينك وبين دماغ المارشال سنين ياما، أنا دماغي توزن عشرة زيك.

ضحك زغلول ساخرًا:

– أيوه صح، بأمارة إنك هتندم عمران في الانتخابات الجاية، قال إيه مش هتنتخبه.

أثارت كلماته حفيظة خميس فاعتدل جالسًا لحظة دخول هيام بالشاي، وتساءل متذمرًا:

– طب قولي يا أبو الأفكار يا ناصح لو مكاني هتعمل إيه؟

لطالما راق عبثها الطفولي لهيام، فابتسمت وجلست قريبًا منهما ترمقهما بنظرات حانية وهي تتابع حوارهما باستمتاع مرتشفة كوب الشاي فيما أخذ زغلول يقول في حماسة:

– لو مكانك كنت هعمل فيه عملة تطلع من نافوخه.

– هتعمل إيه؟

– كنا نطلع احنا التلاتة على الحكومة ونسلم نفسنا ونقول إن إحنا اللي قتلنا وسرقنا المقبرة.

لطمت هيام على صدرها وشهقت بارتياع فيما انعقد حاجبا خميس بذهول:

– أنت أهبل يا له. عايز تودينا في داهية.

ابتسم زغلول:

– اسمع الكلام للآخر، احنا كنا نسلم نفسنا ونقول إن عمران هو اللي خطط للموضوع كله وإدانا فلوس عشان نعمل كدا، ويروح لابس معانا في القضية ويروح في داهية ويتعدم كمان.

كسا الذهول وجه خميس فيما اختفت الدماء من وجه هيام وأخذت تلطم بيدها على رأسها قبل أن تنفرج شفتا خميس عن ابتسامة واسعة وهو يقول بجدية وسعادة بالغة:

– يا ابن الناصح، أما فكرة، ويا سلام بقى وعمران مدلدل كدا من حبل المشنقة وكرشه أدامه هيبقى شكله مسخرة.

راح الاثنان في نوبة ضحك هستيريٍّ بينما جحظت عين المسكينة وهي تصيح بانهيار:

– وهو هيتعلق لوحده، ما احنا هنتعلق معاه.

أشاح خميس بكفه قائلًا بلا مبالاة مواصلًا ضحكه:

– مش مهم. المهم عمران الكلب يتربى.

لطمت خدها بشدة وتأوَّهت قائلة بجزع رهيب:

– يا لهوي يا لهوي. الله يرحمك ياما وهي بتطلع في الروح قالت ليا هموت يا هيام وهسيبك لأخ أهطل وجوز أهبل. يا لهوي ياما كان عندك حق.

انفعلا عليها وخميس يقول بحدة مصطنعة:

- اتلمي يا هيام ومتغلطيش في أخوكي.

قال زغلول مبتسمًا ببلاهة:

- يا سلام ما هي غلطت فيك برضه وقالت جوز أهبل.

شعر خميس بالإحراج فقال بلهجة حاول أن تكون جافة:

- اتلمي يا هيام والا يمين الله أقوم أرقعك جوز أقلام يفوقوكي.

لم تحتمل هيام الموقف، فاض بها الكيل طوال الأيام السابقة، بل قُلْ طوال السنوات الماضية، فما كان منها إلا أن انتفضت من مكانها بعنف خالعة الشبشب من قدمها والشرر يتطاير من عينيها ووثبت ناحيتهما كلبؤة غاضبة فأخذتهما المفاجأة فلم يستطيعا حراكًا فانهالت عليهما ضربًا وصفعًا وهي تصرخ بجنون:

- هتقصفوا عمري يا ولاد الكلب.

* * *

تساقطت الأمطار بغزارة تلك الليلة وأغرقت مياهها الشوارع، بعض المتاجر في منطقة الدقي بدأت تغلق أبوابها، والطرقات بدأت تخلو من المارة، السيارات تباطأت حركتها، وقطة هرعت تثِبُ بين إطارات العربات بتهوُّر شديد من أجل عبور الطريق. في تلك اللحظة وبهدوء شديد اقترب خميس ورفيقاه من إحدى البنايات. كان يرتدي بنطالًا وسترة شتوية ومثله فعل زغلول، فاختفت ملامحهم الريفية إلى حد ما. توقفوا تحت إحدى المظلات ومحروس يشير إلى البناية أمامهم:

– الرجل ساكن هنا في الدور الرابع.

ابتلع خميس ريقه بصعوبة وقال بقلق:

– أنا هطلع لوحدي ولو اتأخرت فوق أكتر من ساعة اهربوا أنتم.

قاطعه محروس:

– هي نص ساعة بعدها هنخلع احنا.

صمت هُنَيْهَة ثم تابع باستجداء بالغ:

– وأمانة عليك لو اتمسكت اوعى تجيب سيرتي أنا وسهيرة احنا مش حمل السجن ولا نومة البورش.

غادرهم خميس متلفتًا حوله بحذر بينما تابعه الاثنان بقلق وهو يخطو داخل مدخل البناية بخطوات مترددة متوجسة وقلبه يكاد يقفز من بين أضلاعه من شدة خوفه وتوتره. راوده هاجس جعله يفكر في أن ينكُص على عقبيه ويطرد تلك الفكرة من رأسه لكن أيضًا تردد داخل عقله تساؤل غاضب: وما البديل؟ لا بديل غير المحاولة فلتكنْ إذن. اتجه مباشرة ناحية السلم، لم يُحبِّذْ استخدام المصعد لعدم درايته بكيفية تشغيله. وصل حتى الطابق الرابع وتوجه ناحية الشقة رقم 17 حدق في اللوحة المعلقة على الباب وقرأها بتمعُّن ثم استجمع قواه وضغط زر الجرس، ثم توقف بعدها لثوانٍ وهو يلْهث من فرط الانفعال. طال انتظاره ولم يُجبْ أحد فضغط الجرس مرة ثانية وثالثة بلا جدوى، أصابه اليأس وأخذ يتلفت حوله متأملًا المكان لثوانٍ قبل أن يقرر المغادرة. أولى ظهره للباب وتحرك خطوتين لكن صرير الباب خلفه جعله يتجمد مكانه مع ارتفاع صوت صارم حادٍّ مشوب بقلق:

– أنت مين؟

استدار ببطء لتلتقي عيناه بعيني طارق الذي تجمدت ملامحه من الصدمة وهو يرمُق خميسًا بنظرات ذاهلة ثم هتف بصوت خفيض مستغربًا:

– خميس. أنت خميس؟

انتقلت الصدمة والذهول إلى خميس فراح يطالع وجه طارق بنظرات قلقة ولم يجب. فهتف به طارق:

– تعالَ. ادخل بسرعة.

– أنت تعرفني يا أستاذ؟

كرر هُتافه بقلق:

– ادخل وبعدين نتكلم.

تردد خميس قليلًا قبل أن يحسم أمره ويخطو داخل الشقة بخطوات بطيئة متوجسة فيما أغلق طارق الباب خلفه. خيَّم صمت رهيب عليهما وهما يتبادلان نظرات حائرة متفرِّسة حتى ابتدره خميس بالكلام:

– عرفتني إزاي؟

جلس طارق على أريكة صغيرة مشيرًا لخميس بالجلوس ثم التقط صحيفة من أمامه وألقاها إليه:

– افتح الجورنال الصفحة الخامسة.

قلَّب خميس الجريدة بلهفة وهو يُدقق النظر ثم تهلَّلت أساريره وصاح بسذاجة:

– دي صورتي أنا وهيام وزغلول.

– أيوه، في صفحة الحوادث.

حلَّ الوجوم على وجهه وقال بحزن:

– أنا مظلوم.

هزَّ طارق كتفيه بلا مبالاة:

– أنا مش قاضي عشان أدينك أو أبرأك.

قالها وسدد إلى خميس نظرات صارمة:

– عايز مني إيه وإيه اللي جابك هنا؟ وتعرفني منين؟

– شفتك في التلفزيون لما صاحبك اتقتل، وحد قريبي سأل عن عنوانك ودلني عليك.

رمقه طارق بشك بالغ وقال بارتياب:

– وعايز مني إيه؟

– عايزك تساعدني.

بدا الاستغراب والدهشة على وجه طارق وقال بجدية:

– أساعدك إزاي؟

– تدلني أعمل إيه في الورطة دي، أنت بتاع آثار وتفهم في الكلام ده.

لم يعِ طارق المغزى من كلام خميس، فمطَّ شفتيه قليلًا قبل أن يقول:

– لو عايزني أساعدك فعلًا مفيش عندي غير نصيحة واحدة.

– إيه هي؟

– سلِّمْ نفسك، ولو مظلوم ثِقْ إنك هتلاقي اللي يساعدك.

صاح خميس مستنكرًا:

– يبقى كدا القضية تلبسني.

هزَّ طارق كتفيه بلا مبالاة:

– هروبك مش حل، ومن غير ما أسمع منك تفاصيل اللي جرى، بقولك سلم نفسك، هروبك هيأكد التهمة عليك.

– ولو معايا دليل براءتي؟

تساءل خميس فأجابه طارق بتلقائية:

– يبقى تقدمه للنيابة فورًا، منتظر إيه؟

ارتبك خميس قليلًا وبدت الحيرة في عينيه:

– مش متأكد هو ينفع يكون دليل براءة ولا لأ.

شعر طارق بالضيق من فرط سذاجة خميس فقرر إنهاء اللقاء سريعًا والتخلص من هذا المأزق الحرج، فتظاهر بالنظر إلى ساعته ثم قال بحزم:

– أنا آسف يا خميس، مرتبط بميعاد ومش هقدر أستقبلك أكتر من كدا، وأرجوك متفكرش إنك تيجي هنا تاني أو تحاول تتواصل معايا بأي شكل، لو حصل هضطر أبلغ عنك.

وَجَمَ خميس واكتنفه اليأس بينما هبَّ طارق واقفًا متوجهًا صوب الباب وهو يُردف بنبرة بدا فيها شيء من التعاطف:

– موقفي حسَّاس، مقدرش بأي حال من الأحوال أتستر على هارب من قضية قتل وسرقة آثار .

هتف خميس بحنق وهو يسير خلفه:

– مفيش حاجة اتسرقت، المقبرة زي ما هي.

التفت إليه طارق مندهشًا:

– بتقول إيه؟ مش فاهم معنى كلامك.

ابتلع خميس ريقه وأكمل:

– هما نزلوا المقبرة وخدوا منها صندوق صغير بس.

بدا الاهتمام على وجه طارق وخميس يُتبع:

– سابوا كل حاجة، الدهب والمساخيط، مخدوش غير البرادي.

تحفَّزت كل خلايا طارق وانتبهت حواسه دفعة واحدة وتساءل بلهفة:

– قصدك البرديات؟

– أيوه. هي البرديات.

في تلك اللحظة ومضت عينا طارق ودوَّت في رأسه كلمات مخيون (البرديات توثِّق كل شيء). جلس الاثنان مجددًا وقد تغيرت ملامح طارق تمامًا ولاحت عليه أمارات الاهتمام:

– احكي ليَّا كل حاجة بالتفاصيل.

وطوال نصف ساعة راح خميس يُلقي على مسامعه الأحداث برمتها من دون أن يتطرق إلى أن البرديات بحوزته.

انتهى من حكايته فتراجع طارق في مقعده والذهول يكاد يبتلعه وبالكاد نطق بلسان مرتعش:

– لو الموضوع زي ما أنا بفكر وهي دي البرديات اللي مخيون اتقتل عشانها يبقى أنت فعلًا في خطر حقيقي.

ازدادت لوعة خميس:

- يعني مش هتعرف تساعدني؟

هزَّ رأسه بأسف:

- مع الأسف مش هقدر، آخر مرة حاولت أساعد فيها حد كنت هتقتل.

صاح خميس في لهفة:

- أنا كل اللي عايزه منك تقولي البرديات تساعدني ازاي في إثبات براءتي.

رشقه طارق بنظرة متسائلة:

- مش فاهم.

- البرديات معايا.

قالها خميس ببطء فانتفض طارق واقفًا كالملدوغ وهو يصرخ:

- البرديات معاك؟

- أيوه معايا، وعايزك تعرف إيه اللي فيها، يمكن تساعدنا في الورطة المهببة دي.

تهللت أسارير طارق وقطرت السعادة من كلامه وراح يربِت بيديه على كتفي خميس بحماسة وحرارة عالية:

- براءة إيه؟ دي هتجيب لك أكتر من البراءة أنت هتبقى بطل يا خميس.

- بلا بطل بلا زفت، أنا عايز البراءة وبس.

واصل طارق حديثه الحماسيَّ:

- لو كانت البرديات اللي أنا متوقعها يبقى طاقة القدر اتفتحت لك وليًّا.

وضع يديه على كتفي خميس وهزَّه بقوة:

- لازم أشوف البرديات دي حالًا.

- مش هينفع دلوقتي، متشالة في مكان أمان.

- خلاص نروح نجيبها حالًا، مفيش وقت، متتصورش الثانية الواحدة تساوي أد إيه.

- مش هينفع، نتقابل بكرا وتكون البرديات معايا.

بدا الاستياء على وجه طارق وتردد قبل أن يقول:

- وهنتقابل فين؟

- مش عارف، اديني رقم تليفونك وبكرا هتصل بك أقولك.

أمسك طارق بورقة وقلم ودوَّن رقم الهاتف.

- ده تليفون شخصي محدش يعرفه، نتكلم عليه بأمان. المهم تخلي بالك من نفسك وتكون حذر جدًّا.

أومأ خميس برأسه وتوجه ناحية الباب فاستوقفه طارق قائلًا بنبرة حالمة:

- تؤمن بالمصادفات يا خميس؟

التفت إليه خميس بعدم فهم.

- يعني إيه؟

ابتسم طارق وهزَّ رأسه مردفًا بنفس النبرة:

- مش مهم، لكن أنا دلوقتي أؤمن بها وبكل كياني.

لم يفهم خميس المغزى من الكلام ظل واقفًا مكانه لمدة ثوانٍ متأملًا السعادة المتقافزة على وجه طارق ثم تركه وانصرف.

غادر البناية بخطوات سريعة، لمحه رفيقاه فهرولا نحوه. وتحركوا سريعًا صوب محطة المترو من دون أن يلْحظوا تلك السيدة التي تحدجهم بنظرات صارمة من خلف زجاج سيارتها المُعتِم. أجرت مكالمة سريعة فظهر شخص من شارع جانبيٍّ واندفع مسرعًا محاولًا اللِّحاق بهم. دخلوا في زحام محطة المترو التي اكتظت بالركاب في ذلك التوقيت بسبب سوء الأحوال الجوية، ذابوا في الزحام واختفوا فيما أخذ الرجل يحاول عبثًا العثور عليهم.

* * *

الفصل التاسع عشر

منطقة وادي الملوك 1911م

انتفخ النهار واشتدت الهاجرة. شعر السير جيمس والتر بالإعياء الشديد وهو يقف وسط مجموعة من العمال المصهودين، راحوا يُعملون معاولهم ومجارفهم في الأرض بدأب شديد على الرغم من حرارة يونيو الخانقة التي حوَّلت الرمال تحتهم إلى سائل ملتهب فيما أخذ العرق يتصبب من الجميع بغزارة بالغة. تأفَّف والتر بسبب لزوجة العرق والتصاق الملابس بجسده. شعر بحرقان في عينيه ففركهما بكفيه وهو يتلفت حوله متفقدًا مساعده الشاب توماس. لم يجده، لكنه لمح جمال الصعيديَّ رئيس العمال يدنو منه والإنهاك بادٍ عليه وهو يلوِّح بكفه قائلًا بلهاث:

– العمال لن يقدروا على مواصلة العمل يا خواجة، ستتوقف الآن ونكمل بعد الظهيرة.

ظهر الضيق والامتعاض على وجه والتر. لم يكن يود إضاعة لحظة واحدة من دون عمل، لكن ها هو قيظ يونيو اللعين يجبره على التوقف لعدة ساعات.

أومأ برأسه وقال بحزم وهو يغمض عينيه بسبب العرق الحارق:

– حسنًا يا جمال توقفوا الآن، لكن أريد مجهودًا مضاعفًا وسنعمل طوال الليل، اهتمَّ من الآن بتوفير المشاعل.

تنهَّد جمال بارتياح وقد سرَّه موافقة والتر على تأجيل الحفر:

– اطمئن يا خواجة، سنعمل طوال الليل بلا كلل ولا ملل.

مسح والتر عرقه وتساءل بتوتر:

– هل رأيت توماس؟ لم أرَه منذ ساعتين.

هزَّ جمال رأسه بحيرة:

– لم أره. مساعدك هذا غريب الأطوار يختفي فجأة ويظهر فجأة.

زفر والتر بضيق بالغ قبل أن يشير إلى جمال بالانصراف وتوجه هو إلى خيمته للَّوذ والاحتماء بظلها. دلف إليها بخطوات بطيئة مرهَقة واتجه ناحية منضدة تتوسط الخيمة وسحب كرسيًّا وألقى بجسده عليه وهو يئنُّ ألمًا قبل أن يجمجم قائلًا:

– سُحقًا لهذه الحرارة.

استرخى في جلسته مادًّا ساقيه النحيليتن أمامه على طاولة صغيرة فبدتا كعودي خشب بالٍ. جذب قِنينة ماء من أمامه تجرَّعها دفعة واحدة. ثوانٍ وشعر بجسده يبرد وأنفاسه تنتظم. عاد إليه صفاؤه وحيويته فالتقط بضع أوراق من على سطح المنضدة وأخذ يتصفحها بدقة وتركيز بالغين. كان قد أمضى أربعة أشهر مع بعثته في منطقة وادي الملوك، كل الدلائل كانت تقوده إلى هنا، لكنه لم يظفر بشيء رغمًا عن الخريطة التي بحوزته. طال تحديقه ومطالعته الأوراق حتى تناهى إلى مسامعه صوت توماس الهادئ:

– سير والتر، هل أنت مستيقظ؟

استدار بوجهه إلى مدخل الخيمة بلهفة:

– توماس، تعالَ.

دخل الشاب الثلاثينيُّ فارع الطول بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين وهو يحدِّج والتر بنظرة هادئة فسأله الأخير بانفعال وتأنيب:

- أين كنت؟

- كنت أجُول في المنطقة.

قالها ببساطة وهو يهزُّ كتفيه وقد بدت أسنانه مبعثرة في فمه بلا اتساق. سحب كرسيًّا وجلس مقابل والتر الذي قال في عصبية:

- لا نملك رفاهية إضاعة الوقت، نحتاج إلى كل ثانية هنا، الحرارة اللعينة أجبرت العمال على التوقف.

استرخى توماس في جلسته وهو يُشعل سيجارة أخذ منها نفسًا سريعًا ثم التقط زجاجة جعة من جواره رفعها إلى فمه وتجرع منها جرعة كبيرة قبل أن يقول:

- لا تقلق يا سيدي، في الليل سأكون فوق رؤوسهم، وسيكون العمل مضاعفًا.

- أتمنى ذلك توماس.

قالها العجوز متأفِّفًا وتوماس يمسح فمه بكم قميصه، فهزَّ والتر رأسه بعصبية بالغة مستطردًا:

-ألن تكفَّ عن الشراب، ستُهلك نفسك أيها النَزِق:

تجرَّع الشاب جرعة أخرى أكبر من سابقتها ثم قال بتلذذ:

- الشراب هو ما يبقيني حيًّا أيها السير، لو كنت بكامل قواي العقلية لما ظللت دقيقة واحدة معك هنا، لذا أحمد للشراب جميله هذا.

قالها وأطلق قهقهة عالية تخللها سعال خفيف فيما أخذ والتر يرقبه باستغراب لعدة ثوانٍ ثم مطَّ شفتيه قائلًا محاولًا تغيير مسار الحديث:

– لم أعد أستطيع التحمل، الشغف والفضول سيقتلاني، أود الوصول إلى تلك المقبرة في أسرع وقت.

– سيكون هذا أعظم كشف أثريٍّ في التاريخ.

حمْلق فيه والتر باستهجان وكأنَّ كلمات الشاب لم تُعطِ الكشف حقه فراح يقول في حماسة:

– بل سيكون الكشف الذي سيُغيِّر مجرى التاريخ. العالم سيُفاجأ بتاريخ آخر يبزغ كالشمس لم يكن أحد يدري عنه شيئًا.

ابتلع السير ريقه واستطرد بالحماسة نفسها:

– موازيين كثيرة ستتغير ومعايير ستنقلب، وخارطة العالم سيطولها تغيير رهيب.

انتقلت الحماسة إلى توماس الذي راح يقول:

– لقد كنا موفقين في رحلة أستراليا تلك، فعلى الرغم من أخطارها، لولاها ما استطعنا الحصول على الخريطة والوصول إلى هنا.

بدأ الخوف جليًّا على وجه والتر وانحنى بجسده إلى الأمام مستندًا بمرفقيه على سطح المنضدة وقال بصوت مرتعش زائغٍ:

– أخشى ما أخشاه أن يتكرر ما حدث معنا في أستراليا هنا، لقد نجونا بأعجوبة المرة الفائتة.

لوح توماس بسبابته وقال بلهجة مطمئنة:

– لا تقلق، هذه المرة نحتاط بشدة، ولا أحد يعلم شيئًا عن عملنا هنا، حتى التصريح بالتنقيب استخرجناه باسم آخر.

حكَّ والتر مقدمة أنفه بتوتر واعتدل في جلسته:

– وعلى الرغم من ذلك أريد إنهاء العمل في أسرع وقت.

نهض توماس وعدل قبعته وهو يقول بثقة:

– اطمئن سير والتر، هذا الكشف سنصل إليه قريبا جدًّا.

– آمل ذلك توماس، آمل ذلك.

قالها واسترخى في مقعده بينما غادر توماس الخيمة. شعر والتر بثقل جفنيه فأغمض عيناه واستسلم لإغفاءة قصيرة لم يدرِ كم استغرقت لكنه انتبه مذعورًا على صرخة عنيفة انطلقت من حنجرة توماس، فانتفض والتر بخِفَّة لا تتناسب مع سنوات عمره السبعين، وهرول خارج الخيمة، ليجد توماس ملقًى أرضًا وهو يصرخ بفزع والعمال يحيطون به بينما يهوي جمال بفأسه على رأس ثعبان أسود يبلغ المتر طولًا ونحيب توماس يتزايد:

– لقد لدغني، لقد لدغني.

هرع والتر ناحيته بلهفة وانكبَّ عليه متفحصًا إصابته. كانت اللدغة في الساق اليسرى فأمسك بها وراح بمهارة فائقة يمتصُّ السُّم بفمه من قدم توماس ويبصقه أرضًا ويعاود فعلته مجددًا وكأنه اعتاد فعل ذلك، فيما أخذ العمال يرقبونه بإعجاب بالغ. انتبه جمال فجأة لذلك الرجل الذي ظهر لتوِّه بجواره وكأن الأرض انشقت عنه وطفق يتابع المشهد بشيء من الدهشة والإعجاب. كان يرتدي جلبابًا أبيض وعمامة خضراء ولحية في بياض ثيابه

ويستند على عصا خشبية بنية اللون، وعلى الرغم من الجو الخانق لم تبدُ عليه قطرة عرق أو حبة رمال ملتصقة به أو بثوبه، لكن الغريب أكثر هي رائحة البحر التي كانت تفوح منه بجلاء. رمَقَه جمال بإجلال ورهبة لم يدرِ كيف اعترته وسرت تلك الرجفة في جسده، لكنه أزاح عنه كل ذلك وعاد لمتابعة والتر الذي ناوله أحد العمال علبة صغيرة كان قد طلبها من خيمته. فتحها وغمس إصبعه فيها وأخرج دهانًا أسود لزِجًا مسح به موضع اللدغة لمدة دقيقة ثم أخرج منديله وربط قدم توماس قائلًا بحنوٍّ بالغ:

– لا تقلق يا بنيَّ، كل شيء على ما يرام.

ابتلع توماس ريقه، وقال بهلع:

– هل أحتاج الذهاب إلى المشفى؟

هزَّ والتر رأسه نافيًا:

– لا، بعض الراحة وستكون على ما يرام.

ابتسم الشيخ وصاح بصوت عميق وكأنه قادم من أعماق التاريخ:

– سبحان الله، غسل المسيح قدم يهوذا ثم خانه يهوذا من أجل الذهب.

استدار إليه الجميع بدهشة خاصة والتر الذي راح يتأمل الشيخ بذهول واستغراب. كان يعرف العربية فأصابته الكلمات بانزعاج فوجه سؤاله للشيخ بحزم وهو يعتدل واقفًا:

– من أنت؟ وما الذي يعنيه قولك هذا؟

لم يجبْه الشيخ، هزَّ رأسه وراح يقول:

– احذر من خليل ماكر عيناه ترياك وقلبه يرعاك، إن رأى منك حسنة دفنها، وان رأى سيئة أفشاها.

شيء ما صرخ في أعماق والتر وهو يُصغي بانتباه إلى كلمات الشيخ، وسرت في جسده قشعريرة هائلة فصاح متوجسًا:

– ماذا تريد؟

تلفَّت الشيخ حوله وهو يتنهَّد بعمق ثم رمق والتر بنظرة ثاقبة شعر الأخير كأنها تخترق أعماقه والشيخ يبتسم قائلًا:

– أريد ماء.

همَّ أحد العمال بمناولة الشيخ إناء ماء فأشار إليه والتر بصرامة ألا يفعل. تبادل العمال نظرات ذاهلة غاضبة وهمَّ جمال بالصياح في وجه والتر معترضًا، لكن فوجئ الجميع بوالتر يجذب قنينة الماء الخاصة به من على خصره ويتجه بها ناحية الشيخ ويناولها له باحترام بالغ:

– تفضل.

لم يُغير الشيخ من هدوئه ولا ابتسامته تناول القنينة وأزاح غطاءها ببطء وقال بصوت خفيض:

– بسم الله.

وبغتة ومن دون أن يتوقع أحد أدار فوَّهة القنينة إلى أسفل وراح يسكب ماءها على الرمال الملتهبة وسط ذهول الجميع.

انعقد حاجبا والتر وقال بانفعال وهو يلوِّح بكفِّه:

– ما خطبك؟ أعطيك الماء لتشربه لا لتسكبه.

لم تتبدد ابتسامة الشيخ ظل على هدوئه وهو يقول:

- الأرض عطشى، أرويها لتعطيك ما تريد.

لم يفهم أحد مراده. تبادلوا النظرات الداهشة ووالتر يقلب كفيه متسائلًا:

- ماذا تقصد؟

لم يُجبْه الشيخ، ناوله القنينة واستدار مغادرًا المكان. مشى بضع خطوات قبل أن يستدير إلى الوجوه الذاهلة مشيرًا إلى البقعة التي سكب فيها الماء:

- بغيتك ارتوت.

قالها بنبرة غريبة فومض شيء ما في رأس والتر وأدرك مقصد الشيخ فشعر برجفة باردة تجتاح جسده، بينما أكمل الشيخ سيره مبتعدًا عنهم. ازدرد والتر لُعابه وهو يقول لجمال بلهفة:

- احفر هنا.

- أين يا خواجة؟

قالها بذهول فأجابه والتر بثقة:

- حيث سكب الشيخ الماء.

تبادل جمال ورجاله نظرات استنكار لمدة ثوانٍ، لكنهم سرعان ما رفعوا مَعاولَهم وراحوا يحفرون في حماسة بالغة، بينما تناهى إلى مسامعهم صوت الشيخ يأتي من بعيد:

- لم ينفع الذهب يهوذا، لُعن في الدنيا والآخرة.

توترت أعصاب والتر بشدة والتفت ناحية توماس الذي لم يفقه شيئًا مما يقال، فيما راح والتر يتأمله قليلًا قبل أن ينفض عن رأسه هاجسًا راوده لثوانٍ ويهرع ناحية العمال لمتابعة عملهم.

* * *

قبل غروب الشمس تعالت صيْحات فرح طاغية وجمال يهتف:

– الباب، الباب يا خواجة.

هرع والتر ناحية الحفرة وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه. ألقى نظرة على جمال في الأسفل الذي أشار إلى مدخل المقبرة بسعادة فراح. والتر يتأمله بغبطة لا حدود لها وهو بالكاد يلتقط أنفاسه من فرط التأثر. دقائق قليلة وأزاح العمال الباب الحجريَّ فيما ظل والتر بالأعلى يفرك كفيه بتوتر بالغ وهو يسأل توماس بجواره:

– كم مرَّ من الوقت على فتح الباب؟

– مرَّ أكثر من ساعة.

زفر والتر بحرارة وهو يرمُق الحفرة بفضول هائل:

– أظنها فترة كافية لتهوية المقبرة سننزل الآن.

قالها بحسم وأشار إلى جمال أن يحضر السلم. دقائق قليلة وكان الرجلان أمام فتحة المقبرة وهما يحملان مصباحًا زيتيًّا ويتأملان المكان برهبة وإجلال شديدين. أخذ والتر نفَسًا عميقًا وهو يخطو داخل المقبرة ومن خلفه توماس الذي رفع المصباح لأعلى لتتيح لهم رؤية أفضل وراحا يتأملان المقبرة بانبهار تجلَّى في نظرات عيونهم وانفعالاتهم. ألقى والتر نظرة على التابوت الضخم

القابع في منتصف المقبرة واقترب منه بحذر بالغ وراح يتفحصه بعينيه قبل أن يهبط على ركبتيه يتحسَّسه بيديه بلهفة عالية ويمر على نقوشه وضربات قلبه تتسارع من فرط التأثر والفضول. جفَّف عرقه بيده وصاح في توماس الذي كان منشغلًا بتأمل النقوش على الجدران فانتبه على نداء والتر:

– توماس، ساعدني هنا.

التفت ناحية والتر الذي كان يحاول إزاحة غطاء التابوت، فدَنا منه وأمسك بجانب الغطاء وراح الاثنان يحركانه ببطء شديد وحرص بالغ حتى نجحا في إزالته ووضعه جانبًا، بينما تسمَّرت عيونهم داخل التابوت وهما يتأملان المومياء داخله بمهابة ورهبة، خاصة اليد التي تخشبت على أنبوب أسطوانيٍّ ذهبيٍّ. مد والتر يده برفق واستخلص الأسطوانة ورفعها ناحية وجهه متأملًا إياها بسعادة غامرة. اقترب توماس بالمصباح فاتضحت الرؤية أكثر ووالتر يزيح غطاء الأنبوب بإثارة بلغت أوجها والبرديات تنزلق من داخل الأسطوانة. ندَتْ من الرجلين صرخة فرح عاتية رجَّت جدران المقبرة، بينما استقرت البرديات بين يدي والتر الذي أخذت دموعه تنهمر بغزارة وتوماس يربِت على كتفيه بانفعال:

– نجحنا يا سيدي، نجحنا هذه المرة.

التفت إليه بعيونه الدامعة وراح يردد بصوت متهدِّج:

– نعم يا بنيَّ نجحنا.

صمت قليلًا متأملًا البرديات ثم استطرد بقوة:

– ليكن الربُّ في عون العالم وهو يستقبل هذا الكشف الذي سيهزُّ أركان الدنيا بأسرها.

* * *

وضع البرديات أمامه على المنضدة فيما انشغل توماس بضبط الإضاءة. تناول والتر منشفة مبللة بالماء، وأمسك بالبرديات واحدة بعد الأخرى وهو يُثبِّت طرفيها الخارجيين على المنضدة ثم يُمرِّر المنشفة برفق على ظهر البردية ليمنحها شيئًا من الرطوبة حتى لا تتكسر، ويُصيِّرها طيِّعة لينة في يده. انتهى من عمله وراح يتأمل البرديات بدهشة، كانت صفحاتها في حالة جيدة من الحفظ يصعب تصديقها على الرغم من مرور آلاف السنين عليها. ابتلع ريقه بالكاد وهو يحاول السيطرة على لهاثه من فرط الإثارة التي غلَّفت كيانه بالكامل وهو يمرُّ ببصره على الأوراق أمامه. أشار بسبابته قائلًا بحرارة:

– إنها مكتوبة بالخط الهيراطيقيِّ، وهو أحد خطوط ثلاثة للغة المصرية القديمة؛ الهيروغليفيِّ، والهيراطيقيِّ، والديموطيقيِّ.

كان توماس يدرك كل تلك المعلومات لكنه ولفرط حماسة والتر جعله يستفيض في شرحه ويسترسل باستمتاع بالغ:

– الهيراطيقيُّ خط مُختَصر رشيق بين الهيروغليفيِّ والديموطيقيِّ، وتسميته تعني الخط الكهنوتيَّ.

صمت قليلًا وعيناه تتنقلان بذهول بين رموز البرديات قبل أن يرفع رأسه وعيناه تبرقان كبرق لامع:

– يا إلهي. إنها تذكُر وتوثِّق كل شيء، لم أتوقع أن تذكر كل تلك التفاصيل.

قلَّب في البرديات قليلًا قبل أن يتوقف عند إحداها قائلًا بذهول عارم:

– أوه، هذا رسم لزودياك دندرة أيضًا.

– ما الذي يعنيه هذا الزودياك؟

– يعني أن ما أخفاه شامبليون وعجز عن البوْح به ستكشفه هذه البرديات أيضًا، لقد سُرق الزودياك من مصر ونُقل إلى فرنسا لإخفاء دلائله التاريخية التي تعود بعمر الحضارة المصرية إلى أكثر من خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد، حتى شامبيلون نفسه بعد دراسته للزودياك لم يستطع أن يبوح بالحقيقة ويعلنها العالم خوفًا من رجال الدين، لكنه في مراسلاته السرية وجلساته المُغلقة مع المقربين منه أقر بصحة ما ورد في زودياك دندرة.

قالها ورفع عيناه متأملًا وجه توماس واستطرد بغبطة:

– في الغد سيبصر العالم جانبًا من التاريخ لم يسمع به أحد من قبل.

قالها وران على المكان صمت عميق، فيما راحت العيون تحدِّق في البرديات بشرود عجيب.

* * *

في الصباح تحركت بهما السيارة مغادرة منطقة وادي الملوك. اقتحم توماس الصحراء بجسارة وبسالة نادرتين وهو يقود السيارة بحُنكة ومهارة. كان والتر استقدم السيارة من لندن خصيصًا لهذه المهمة، لتسهل تنقلاتهم وتحركاتهم. في ذلك اليوم بدا كل شيء سعيدًا ومبهجًا بالنسبة إلى السير والتر، شعر بغبطة وبهجة يسريان في عروقه، بدا ذهنه صافيًا وجسده يفور بالنشاط والحيوية، كأن القرون الغابرة التي كشف عنها قد نقلت إلى جسده حيوات أصحابها، إنه نوع من الشعور بالامتلاك، امتلاك المعرفة. لم يكن يدرِ ما هي خطوته التالية. سرت في جسده رجفة حين راودته تلك الفكرة. في تلك اللحظة اكتنفه شرود بالغ وهو يتشبث بحقيبته الجلدية الصغيرة كطفل يخشى ضياع أشيائه. سقط في تفكير عميق لم يفُقْ منه إلا على أشعة الشمس

التي لفحته بشدة. كان وقت الظهيرة واشتداد القيظ، وقد أنشبت الشمس الملتهبة أنيابها في رمال الصحراء التي أخذت تلتمع من شدة الوهج. ألقى والتر بصره ليجد أمامه بحرًا رمليًّا أصفر عظيمًا ممتدًّا على مدى البصر، أجرد عاريًا إلا من تلال قبعت على جانبي الطريق كأنها أبراج حراسة، وكثبان رملية بدتْ أشبه بشواهد قبور تُنذر وتهدد من تجسَّر واقتحم حرمتها مذكرة إياه بمصير سابقيه. تأمل الطريق حوله مستغربًا وسأل توماس بقلق:

– ما زلنا داخل الصحراء، لم تصادفْنا أي قرية حتى الآن، هل ضللنا الطريق؟

لم يُجبْ توماس، بدا هادئا تمامًا وهو يحدِّق النظر أمامه، فعاود والتر تساؤله بلهجة حادة. فضغط الشاب مكابح السيارة بغتة فاندفع والتر إلى الأمام بعنف واصطدم بزجاج السيارة فصرخ بألم:

– أيها التعِس، ماذا دهاك؟

ضاقت عينا توماس وانعقد حاجباه بغضب وقال بلهجة تملؤها شراسة ووحشية:

– لا شيء، فقط غيرت الطريق.

امتُقع وجه والتر وتساءل بانزعاج:

– ماذا هناك توماس؟

لم يُجبْ الفتى، كوَّر قبضته بسرعة وهوى بها على فك والتر الذي أطلق صرخة ألم رهيبة والدماء تنفجر من وجهه. وقبل أن يستوعب الموقف فوجئ بتوماس يفتح باب السيارة وينتزعه من مقعده ويُلقي به خارجها بقسوة قبل

أن يلتقط الحقيبة الجلدية ويضعها أمامه. سقط والتر على وجهه فملأت الرمال الملتهبة عينيه وفمه فصرخ من شدة الألم والتفت خلفه مواجهًا توماس الذي رمقه بمقْت هائل ووالتر يسأله:

– لِمَ يا بُنيَّ؟

أجابه بقسوة:

– أنت أحمق لا تدري مع من تعبث، إنهم يريدون البرديات.

لهث والتر وهو يحاول عبثًا إزالة الرمال من عينيه قبل أن ينفجر توماس في غضب هادر قائلًا:

– أنت غبيٌّ والتر، هَوَسَك بالتاريخ سيقتلك، كان ينبغي أن تتعلم مما حدث في أستراليا، لقد نجوْنا بالكاد هناك، ولكنك ما زلت مُصِرًّا على مواصلة ذلك الطريق.

زفر بضيق ثم أردف بغلظة:

– هوسك بالشرق جعلك كأهله، تنصاع لقلبك وعواطفك، أما أنا فلا، سأتبع عقلي.

حاول والتر النهوض فلم تطاوعه قدماه فتهالك أرضًا متأملًا توماس بهلع بالغ.

– هل بِعْتني لهم يا بُنيَّ؟ لقد كنت لك بمنزلة الوالد، أستحلفك بما مضى ألا تفعل.

بدا الضيق على وجه توماس وهزَّ رأسه بشدة كأنه يطرد فكرة ما:

– لقد اشتريت حياتي، سيمنحونني الذهب الذي عثرنا عليه في أستراليا.

سكت قليلًا ثم أردف بحدَّة:

– سأصير ثريًّا، أما أنت فستقضي نحْبك هنا بسبب غبائك.

قالها وضغط دوَّاسة الوقود بقوة فانطلقت السيارة مثيرة خلفها عاصفة ترابية. أصاب الذهول والتر، فهبَّ راكضًا خلف السيارة صارخًا بذُعر:

– توماس، توماس عُدْ إلى هنا.

لكنه لم يجد لندائه رجعًا ولا لصوته صدًى.

* * *

ارتفعت الشمس في كبد السماء، وراحت تصبُّ نارها على الرمال التي التهبت وتوهَّجت على أشدها. لم يدرِ والتر كم ظل يسير لكنه شعر بإعياء وإنهاك شديدين. صارت حبَّات الرمال كجمر متوقد متوهج بشدة، انعكست أشعة الشمس عليه فأحرقت عيناه. آلمته عيناه بشدة واضطربت الرؤية تمامًا. تهاوت قدماه، فسقط أرضًا مستندًا على كفيه فأطلق صرخة وجع حين التصقت الرمال الملتهبة بيديه. انهار جسده بالكامل وسقط على وجهه وأغمض عيناه وراح يهذي:

– السر سيُخفونه، توماس خانني.

سكت هُنَيْهَة ثم عاد يُهمهم:

– توماس، أيها الشقيُّ التعِس، ما الذي حملك على هذا؟

تراءت له ظلال حمراء تعبث من حوله، راح يخاطبها وقد بلغ هذيانه مداه:

– أخبروا توماس أن يعود، سأصفح عنه، فقط أخبروه بذلك، حسنًا، أعطوني شربة ماء، شربة ماء واحدة، أتوسل إليكم.

في عقله راحت تتردد أصوات خافتة، أصوات متناغمة غير مفهومة، وجد لسانه يترنَّم بحزن بالغ:

- إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ لِمَاذَا تَبَاعَدْتَ عَنْ خَلاصِي وَعَنْ سَمَاعِ صَوْتِ تَنَهُّدَاتِي، إِلَهِي، أَصْرُخُ إِلَيْكَ مُسْتَغِيثاً فِي النَّهَارِ فَلاَ تُجِيبُنِي، وَفِي اللَّيْلِ فَلاَ رَاحَةَ لِي، صَارَتْ قُوَّتِي كَالْمَاءِ، وَانْحَلَّتْ عِظَامِي. صَارَ قَلْبِي كَالشَّمْعِ، وَذَابَ فِي دَاخِلِي. جَفَّتْ نَضَارَتِي كَقِطْعَةِ الْفَخَّارِ، وَالْتَصَقَ لِسَانِي بِحَنَكِي، إِلَى تُرَابِ الأَرْضِ تَضَعُنِي. يَا رَبُّ، لاَ تَتَبَاعَدْ عَنِّي. يَا قُوَّتِي أَسْرِعْ إِلَى نَجْدَتِي.

كان ريقه قد جفَّ منذ وقت طويل، وتشققت شفتاه وتقرَّح جلده بشكل بَشع وملأت شقوقه الرمال الملتهبة. كان في حالة مزرية للغاية. سقط في إغماءة لبعض الوقت لم يفقْ منها إلا على شيء ما ظل يجذبه من ظهره بعنف. زاد هلعه ورعبه، ومن دون أن يبصر ذلك الشيء حدس أنه طائر جارح ظنه جيفة جاء يقتات عليها. بالكاد حرَّك ذراعيه مثيرًا حوله الرمال، فجفل الطائر وابتعد. راح يُحلق قريبًا من والتر وقد أيقن أن فريسته ما زالت على قيد الحياة، لكنها ضعيفة واهنة، وسرعان ما ستخور قواها وتخمد حركتها وحينها سيعود.

جاهد والتر ليفتح عيناه فاصطبغ كل شيء حوله بحمرة قانية، حاول رفع رأسه لكنه عجز فاستسلم تمامًا وهو يرجو اقتراب النهاية. لكن بغتة هبت نسمة باردة لها رائحة البحر ووجد يدًا حانية تمسح على رأسه برفق ففتح عيناه ببطء ورؤيته المشوَّشة تتضح تدريجيًّا فأبصر الشيخ الذي التقاه عند المقبرة. تأمله الشيخ بحزن هائل ثم جلس بجواره ورفع رأس والتر على فخذه وقال بصوته العميق:

– حذرتك من يهوذا.

– لقد خانني، خانني.

قالها بحزن وجزع فأومأ الشيخ برأسه قائلًا بثقة:

– كل يسير إلى قدره، الذهب لم ينفع يهوذا.

غمغم والتر بحزن:

– أقسم على حمايتي والذَّود عني ثم باعني.

– يمين فاجرة وصفقة خاسرة.

قالها الشيخ وجذب من جواره قنينة ماء سكب منها على يده وطفق يمسح بها وجه والتر الذي أخرج لسانه بلهفة محاولًا التقاط قطرات الماء فيما أخذ جسده يرتعش ولهاثه يكاد يفتك به. وضع الشيخ قطرات على شفتي والتر المتشققتين فنَدَتْ منه شهقة ألم هائلة. تركه الشيخ. عدة دقائق حتى هدأ ثم سقاه الماء حتى ارتوى. انساب الماء في عروقه فانتعش عقله واتَّقد ذهنه رغمًا عن جسده الذي انهار وتقوَّض، وروحه التي بدأت تلملم شتات نفسها استعدادًا للمغادرة. تأمل وجه الشيخ بامتنان ثم قال بصوت واهٍ مرتعش:

– لقد دنا مني الموت، أرى روحي على شفيره، خائف أنا يا سيدي، قلبي هَلوع ونفسي مُلتاعة، آهٍ ما أضيق الباب وأكرب الطريق!

هزَّ الشيخ رأسه وقال بصوته العميق:

– الموت آتٍ لا محالة. أقدارنا تسوقنا إليه سوقًا، طوعًا أو كرهًا. قسرًا نسير نحو حتفنا لا مناص من ذلك، وعلى كواهلنا حمل ثقيل، وعبء جسيم، حصائد ألسنتنا، همساتنا، هفواتنا، خطراتنا، كل شيء نحمله معنا، لكن لا

ندري هل نُكبَّل بما نحمل أم نُجازى عليه؟ هل دربُنا سيكون شاقًّا بائسًا أم فيض الله يقودنا إلى درب الرحمة؟

– آهٍ من أسقام القلب وأوزار الروح.

– الزور يسلب النور، وأرى في قلبك نورًا تهتدي به الروح.

– حزين من أجل توماس، لكم أرجو له المغفرة.

– الله يُعلمنا المغفرة، لكن خطايا بعض البشر لا يمكن غفرانها.

قالها وراح يربِت برفق على رأس والتر فهدأت خواطره وغشَته سكينة عميقة أحاطت بقلبه وغلَّفت فؤاده. أغلق عيناه لثوانٍ قبل أن يفتحهما قائلًا بحزن بالغ:

– السرُّ سيخفونه.

– لكلِ نبأ مستقر.

– لقد ضاع كل شيء. البرديات كانت آخر أمل.

– لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

أحسَّ والتر بالبرودة تجتاح جسده. شهق بعنف وجسده ينتفض، وعلى الرغم من سكرات الموت سأل الشيخ وهو يرنو إلى وجهه بإجلال:

– ما اسمك يا جليل القدر؟

أجابه الشيخ بصوت عميق راح يتردد في أعماقه:

– الشيخ خضر، عبد من عباد الله.

– السرُّ يا شيخ، السرُّ سيخفونه.

– ما أذن الله بظهوره ليس لعبد أن يُخفيه.

شيء ما بزغ في عقل والتر فجأة، وراح اسم الشيخ يتردد في عقله فتمتم:

– ليس مكتومًا لن يُستعلن ولا خفيًّا لن يُعرف.

صمت قليلًا ثم قال بلهفة وكأنه تذكر أمرًا ما:

– خضر.

لم يُتم عبارته. جحظت عيناه وشهق بعنف وانسابت الروح من الجسد.

* * *

بعد أسبوعين عُثر على توماس مقتولًا في أحد شوارع الإسكندرية. وقبل أن يقضي نحْبه كان يصرخ بعنف وهلع شديدين:

– لقد خانوني.

لم تستدل الشرطة على قاتله وقيدت الحادثة ضد مجهول.

* * *

الفصل العشرون

قبل الغروب بحوالي ساعة تأمل خميس ساحة الحسين حوله بسعادة بالغة. اكتظ المكان بالناس من كل صوب وحدب. تصاعدت الهمسات والضحكات من الجنبات، شيء ما تنزَّل على المكان ونشر نشوة راحت تُدغدغ الأرواح وتنعش القلوب، فبدا في الأجواء توتر لا يسكن، ونبض لا يتوقف. حكمة ونور، فرح وسرور، صخب وضجيج، وجوه حالمة ووجوه ذاهلة، ووجوه تبحث عن كُنه نفسها. طوفان بشريٌّ متلاطم مُفعم بالوجْد والجذْب. بسطاء يفرحون ويطربون، أصحاب أوطار يمَّموا شطرهم صوب أهل الأسرار. من الجنبات يتسلل إليك عبير مسك وعزف عود وأنين ناي، وصوت شجيٌّ نديٌّ يصدح بخفوت (حي على الوداد). نغمات وكلمات لا تدركها الأسماع، لكنها تطرق شَغاف القلوب برقة ووداعة لتنساب في الأفئدة بردًا وسلامًا، خمرًا وسكارًا، فتتمايل الرؤوس وتقشعر الأبدان رهبة وإجلالًا، ويعجز اللسان عن البيان فينبري القلب خاشعًا والعين بالدمع لامعة، ويذوب الجسد ويمتزج بمادة الكون، فلا تدري أي زمان هو ولا أي مكان يكون، فقط يجتاحك وجدٌ وجذب هائلين، وتتدثر بعباءة حب ساترة حافظة تجول بك أفق الكون، فلا يَحدُّك زمان ولا يحوطك مكان.

شعَر بجسده يدور في كل ركن فيه وبروحه تُحلق عاليًا، شيء ما لامس وجدانه وهزَّ أعماقه، سرت في عروقه طمأنينة وهو يتأمل مأذنة المسجد بمهابة وإجلال ودوَّت كلمات في عقله لم يدرِ قائلها ولا متى قالها، لكنه سمعها تترد

بجلاء (المآذن كالبشر، تبكي وتضحك، تحزن وتفرح، لأنها مثلنا لها أرواح).

أفاقَ من تأملاته وشروده وهرع إلى كشك سجائر أجرى من عنده مكالمة هاتفية، أخبر خلالها طارقًا أنه ينتظره في داخل جامع الحسين. أنهى المكالمة وعاد إلى المسجد منتحيًا هو وزغلول في أحد الأركان الهادئة. تأمل زغلول المكان حوله متسائلًا:

– اشمعنى اخترت تقابل طارق هنا؟

شرد خميس قليلًا وهو يتأمل ضريح الحسين ثم قال بصوت عميق:

– جيت هنا كتير مع أبويا الله يرحمه، لكن أول مرة جيت فيها لقيت رجل من بتوع ربنا قاعد إدام الجامع بينشد ويقول: «نحن في ساحة الحسين نزلنا وفي حمى الله من أتى لحسينا».

صمت قليلًا مُطرقًا ثم رفع رأسه قائلًا بثقة:

– جينا عشان نحتمي بربنا.

بالقرب منهم كانت جلسة ذكر توشك أن تبدأ. جلس في منتصفها شيخ خمسينيٌّ وقور هادئ الملامح، تَحلَّق حوله بضعة أشخاص على شكل دائرة غير مكتملة، هرع خميس وزغلول إلى الفُرجة وسدَّاها بجسديهما. جلسا هادئين وأبصارهم متعلقة بالشيخ الذي أغمض جفنيه وراح يحرك حبَّات مسبحته لبضع ثوان قبل أن يفتح عيناه ببطء وهو يقول بصوت عميق هادئ:

– إلهنا أنت الأول، إليك الالتجاء وعليك المعول. إلهنا، حكم مشيئتك في العبيد لا ترده همة عارف ولا مريد، لكن فتحت لنا أبواب الألطاف الخفية، المانعة حصونها من كل بلية، فأدخلنا بلطفك تلك الحصون، يا من تقول للشيء كن فيكون.

صمت قليلًا واغرورقت عيناه بالدموع ثم أنشأ يقول بصوت رخيم نديٍّ:

– تأنَّست بلطفك يا لطيف، سلمت بلطفك يا لطيف، تحصنت بلطفك يا لطيف، آمنت بلطفك يا لطيف، وُقيت بلطفك من الرَّدى، وتحصنت بلطفك من العدا، يا لطيف يا حفيظ.

طفق الشيخ يرددها والبقية من خلفه طوال نصف ساعة، تشابكت خلالها الأيدي، وتعانقت القلوب، وصَفَتْ الأرواح، وسكنت النفوس، وهدأت الخواطر، وخشعت الأصوات، وجرت الدموع، وسرت في العروق راحة وطمأنينة، فخفَّت الأجساد وتلاشى وزنها، فراحت تتمايل يمنة ويسرة بحركة انسيابية متناغمة، متماهية مع حركة الكون معلنة تحررها من ربقة القيود الأرضية وصولًا إلى حالة من الانتشاء الروحيِّ والصفاء الذهنيِّ.

لم تكدْ تنقضي ساعة حتى لمحا طارقًا يخلع نعليه ويخطو داخل المسجد، متلفتًا حوله باحثًا عن خميس الذي أشار إليه فأقبل ناحيتهما بحذر متفحصًا زغلولًا بارتياب فطمأنه خميس:

– ده صاحبي زغلول اللي حكيت لك عنه.

– أهلًا يا زغلول.

– أهلًا يا بيه.

تأمله طارق مليًّا وهو يصافحه ثم وجه حديثه إلى خميس وهو يقول بصوت أقرب إلى الغمغمة:

– البرديات فين؟

– في الحفظ والصون.

جلس ثلاثتهم وطارق يكرر سؤاله بلهفة عاتية فابتسم خميس بثقة:

– طلعها يا زغلول.

اعتدل زغلول على ركبتيه ورفع جلبابه لأعلى وسط دهشة طارق التي تعاظمت وزغلول يدسُّ يده داخل سرواله لبضع ثوان قبل أن يخرجها ملوِّحًا بالبرديات فلم يملك طارق نفسه وهو يصيح ذاهلًا:

– يخرب بيت عقولكم، أنتوا متخلفين، أنتوا حاطين البرديات فين؟ أنتوا مش عارفين قيمة الحاجة دي.

ابتسم الاثنان ببلاهة ثم قال خميس بجدية:

– لا، طبعًا عارفين، عشان كدا بنخبيها في مكان ميخطرش على بال حد.

تردد طارق قليلًا ثم مد يده بقرف شديد متناولًا البرديات، وما إن أمسك بها حتى تلاشى ذلك الموقف من ذهنه تمامًا، واجتاح كيانه بالكامل قشعريرة هائلة، فارتعشت يداه وشعر بالبرودة تسري في جسده. وضعها أمامه أرضًا وأخذ يتفحصها بانهماك وانغماس تامَّين حتى لم يعد يشعر بالكون حوله فطفقت دموعه تتساقط وهو يواصل تحديقه وتقليبه في الأوراق وبدتْ تتكون على شفتيه ابتسامة أخذت تتسع رويدًا رويدًا حتى ابتلعت وجهه بالكامل فتبادل خميس وزغلول نظرات حائرة:

– إيه يا أستاذ شكلك مبسوط أوي.

تساءل خميس بفضول فرفع طارق رأسه مجيبًا بانبهار فائق وبغبطة عاتية كادت حرارتها تلفح وجهيهما:

– دي أسعد لحظة في حياتي كلها، متعرفوش احنا عملنا إيه عشان نوصل للبرديات دي، الحظ كان بيساندكم لما أخدتوها من العربية.

ابتسم زغلول:

– تسلم إيديا أنا اللي خدتها.

تابع طارق حديثه بنبرة حزينة:

– الدكتور مخيون الله يرحمه، دفع حياته تمن البحث عنها.

– ربنا يسترها علينا احنا.

قالها خميس بقلق، فابتسم طارق مطمئنًا:

– متقلقوش، طالما البرديات معانا، موقفكم في القضية هيتغير تمامًا.

– إزاي؟

قالها الاثنان بفضول ولهفة فأجابهما وعيناه لا تكفَّان عن الدوران في أرجاء المسجد كأنه يتأكد أن لا أحد يتلصَّص عليهم:

– عن طريقها هنقدر نربط الخيوط ببعض، ونثبت إن اللي قتلوا مخيون هما نفسهم اللي سرقوا المقبرة وقتلوا حراستها عشان يلبسوكم القضية.

تبادل الاثنان نظرات قلقة:

– والموضوع ده يتم إزاي؟

أجابهم بثقة عالية وهو يربِت على كتف خميس:

– الموضوع هياخد وقت، أنا هكلم معارف ليَّا في وزارة الداخلية وهرتِّب الأمور معاهم وتسلموا نفسكم ونقدم كل الأدلة دي للنيابة وبراءتكم محسومة تمامًا.

بدا التردد على وجه خميس وهو يجذب البرديات من يد طارق الذي تشبَّث بها لثوانٍ قبل أن يجبره إصرار خميس على التخلِّي عنها.

– البرديات هتفضل معانا لحد ما ترتب الأمور مع الحكومة.

ظهر الأسف على وجه طارق وقال بجزع كمن انتزع منه وحيده:

– وجودها معكم خطر عليكم وعليها، الأفضل إنها تكون معايا أنا هقدر أحميها وأحميكم.

– كنت حميت صاحبك اللي مات، معلش يا أستاذ دي الحاجة الوحيدة اللي تثبت براءتنا عشان كدا لازم تفضل معانا.

أدرك طارق أنه لا جدوى من الحوار معهما وإقناعهما بالتخلِّي عنها خاصة وزغلول يعيد وضعها في الخزانة السرية فقال بلهفة:

– أنا هرتِّب لكم بكرا ميعاد مع حد من وزارة الداخلية ونطلعه على الأدلة اللي معانا وهو هيطمنكم بنفسه على موقفكم في القضية وهتتحولوا من متهمين إلى شهود، لكن أهم شيء تحافظوا على أرواحكم والبرديات لحد ما نتقابل بكرا.

أنهوا لقاءهم متفقين على موعد الغد، ثم غادر خميس وزغلول المسجد بخطوات حثيثة وثَّابة فيما جلست سوزان في سيارتها السوداء المُعتمة ترمقهم بنظرات حادة وهي تضع الهاتف على أذنها:

– شايفاهم أدامي خارجين من الجامع، رجالتنا وراهم.

أنهت المكالمة وعادت لمتابعة مراقبتها فحانت منها التفاتة ناحية باب المسجد فوقع بصرها على طارق وهو يغادر متلفتًا حوله في حذر فتابعته ببصرها حتى غاب عنها وسط الزحام فابتسمت متهكِّمة وانطلقت بالسيارة.

* * *

سلك خميس وزغلول شارعًا جانبيًّ ضيِّقًا مكتظًّا بالمارة والباعة، دفعا بأنفسهما وسط الزحام وزغلول يتساءل متخوفًا:

- فيه حد مراقبنا ولا حاجة؟

هزَّ خميس كتفيه بحيرة:

- مش عارف، احنا هنعمل زي ما محروس قالنا وخلاص.

- هي فين القهوة اللي قلنا عليها؟

أشار خميس أمامه:

- المفروض آخر الشارع ده.

أسرعا المسير حتى نهاية الشارع، لمحا المقهى واتجها ناحيته مسرعين. كان مقهى واسعًا بعض الشيء يضم حجرة جانبية لاستيعاب الزبائن الذين اكتظ بهم المكان لمشاهدة مباراة مصر وجنوب أفريقيا. هرعا إلى داخل الحجرة نحو باب جانبيٍّ مغلق، أدار خميس مقبضه وفتحه بسرعة ليجد نفسه وزغلولًا في شارع خلفيٍّ يقف فيه محروس بسيارته الفيات الصغيرة، ألقوا بأنفسهم داخلها وانطلقت بهم مسرعة مغادرة المكان.

* * *

صمت مَقيت كان له وطأة قاسية على سوزان وهي ترمق الظلام بخوف هالع منتظرة أن يُنهي الدكتور صمته ويتحدث. لطالما أخافها الصمت وأفزعها السكون، تخشى المجهول المتواري خلفه، تخشى انتظار الكابوس الذي يَقُضُّ دومًا مضجعها، لو أنه يأتي فجأة بلا سابق إنذار لكان أهون عليها، لكنه دائمًا يأتي مسبوقًا بصمت، مشفوعًا بسكون، وهذا ما يقتلها بدل

المرة ألفًا. يدرك الدكتور ذلك، ولطالما استعذب إيلامها بصمته وجلدها بسكونه، تركها تتلظَّى على جمر الصمت حتى كادت تنفلت منها صرخة مفجوعة قبل أن يقول بلهجة غامضة:

– من أول يوم اخترت طريقي ده والتحديات متوقفتش أبدًا، أخرج من صراع عشان أبدأ غيره، وأنهي جولة عشان أبدأ التانية، ناس كتير غيري فشلوا وسقطوا بسرعة، عارفة إيه السر ورا نجاحي واستمراري السنين دي كلها؟

انعقد لسانها ولم تُجبْ. راحت تُصغي لخطواته الوئيدة الثقيلة وهي تقترب منها على مهل حتى صار خلف مقعدها تمامًا، امتدت يده ببطء ناحيتها وأحاطت بعنقها، فسرت في جسدها رعدة شعُر هو بها فابتسم بتشفٍّ بالغ وهو يستطرد:

– التحور والتكيف مع الظروف والمستجدَّات، ده اللي خلى الفأر الصغير يعيش ملايين السنين، وخلى الديناصور العملاق ينقرض، في العصر الجليدي الفأر فهم إن الوضع الجديد أكبر منه وأصعب عليه، وعشان كدا حفر أنفاق تحت الأرض ونزل فيها، الديناصور العملاق اتحدى الظروف الجديدة وفكر إن جسمه العملاق قادر على المقاومة، لكنه خسر الرهان، فاهمة حاجة يا سوزان؟

أومأت برأسها إيجابًا ووجيب قلبها يكاد يعلو على صوت الدكتور الذي أردف ويده تضغط على رقبتها برفق:

– لكن التحوُّر والتكيف مع بعض الظروف ممكن يحول الإنسان إلى شيء بشع، زي اللي حصل مع أسماك الكهوف. أسماك بتعيش في مياه مظلمة بدون

حتى بصيص ضوء، ورغم كدا تكيفت مع ظروفها وتعايشت مع الوضع الجديد وخلال قرون فقدت لونها، فقدت عيونها، تحولت لكائنات بشعة، لكنها بقيت وعاشت، رغم إنها بقت شيء فظيع، مسخ رهيب، مش مهم، المهم الوجود، المهم البقاء والاستمرار، مش زي ما بيقول أصحاب المثالية والنظرة الحالمة إن فيه أوقات الرحيل والاستسلام بيكون أفضل من المقاومة والتكيف، ويستدلوا على كدا بفلسفتهم الفارغة عن الرحيل بهدوء عشان المخلوق يحافظ على كينونته وكبرياءه، وإنه لو فقد الوجود مش هيفقد روحه أفضل من التحول إلى مسخ بشع زي ما بيقولوا.

صمت لثوانٍ قبل أن يُتبع:

- يجوز كلامهم ده صحيح بالنسبة لوضع الأسماك، لأنه وضع أجبر عليه، مسار إجباري، لكن وضعي ده باختياري أنا، أنا اللي اخترت الظلام، وأنا اللي اخترت طريقي، وأنا اللي اخترت أتكيف وأتحور مع الظروف، الطموح له تمن وضريبة لازم تتدفع، زي ما السمك دفع ضريبة البقاء وقبل بالتشوه، أنا برضه دفعت ضريبة اختياري، ضريبة طموحي، لكن دفعتها عن طيب خاطر، وعن رضا نفس، وقبلت بعالم الظلام عارفة ليه؟

لم ينتظر منها ردًّا، راح يُتبع بجذل:

- الظلام حصن وستار، الظلام بيخلي صاحبه سيد على المتواجدين في النور، لأنه شايفهم وهما لأ، هو نظراته ناحيتهم باردة وقوية وهما نظراتهم ناحية الظلام فزع ورعب، أقل همسة ترعبهم وأقل حركة تثير فزعهم، دايما بيكونوا خايفين من المجهول اللي بينتظرهم في الظلام. الظلام بيخليني قادر أقرأ عيونهم وملامح وجوههم، أقدر أغوص جواهم وألمس مكامن الرعب

عندهم وأحركها، الرعب بيخليني سيد عنده قوة وسطوة بلا حدود، سطوة تخترق الأرواح وتسيطر على العقول، بقوة الخوف، الخوف أقوى سلاح استخدمه الإنسان ضد خصومه، عارفة ليه؟ لأنه سلاح فتاك ومدمر، مفيش إنسان مهما بلغت شجاعته وجرأته مبيخفش، مستحيل تلاقي إنسان مبيخفش، جوا كل واحد جانب مظلم بيختفي فيه شيء بيخوفه ويرعبه، مهمتي أنا أدخل جواه وأدور على الشيء ده واستخدمه ضده، وقتها يقع في دوامة الظلام وتبتلعه بالكامل، وعندها يتحول إلى عروسة ماريونيت أحركها زي ما أنا عايز، فاهمة حاجة يا سوزان؟

– فاهمة يا.

لم تتم عبارتها، بَتَرَتْها وانتفض جسدها بحدة ويدا الدكتور تُطبق على عنقها بعنف بالغ فراحت تجاهد لالتقاط أنفاسها ويداها تحاولان عبثًا التخلص من قبضة الدكتور القاسية التي راحت تعتصر عنقها بقوة وعيناها تجْحظان بشدة، قبل أن يطلقها ليندفع الهواء إلى رئتيها مؤلمًا إياها فأخذت تشهق بفزع. لم يُمهلْها كثيرًا، تركها تلتقط أنفاسها لبضع ثوانٍ قبل أن يستدير مواجهًا إياها منحنيًا عليها حتى لفحت أنفاسه الساخنة وجهها وهو يصرخ بغضب هادر فجَّر بداخلها بحارًا من الخوف جعل جسدها يرتجف كعصفور عالق في عاصفة ثلجية:

– إزاي يفلتوا من مراقبتك؟! شوية فلاحين يضحكوا على رجالتك؟!

بالكاد نطقت وعيناها تكادان تقفزان من محجريها من شدة الخوف:

– الرجالة كانوا وراهم من لحظة ما خلصوا مع طارق وخرجوا من الجامع، لكن دخلوا قهوة لها باب خلفي خرجوا منه واختفوا تمامًا.

اعتدل واقفًا وطفق يفرك كفيه بعصبية وحلَّ الصمت لبعض الوقت قبل أن يقطعه بقوله:

– المرة الجاية هيكون فيه حد غيرك بيتابعهم، عايزك دلوقتي في مهمة تانية.

بدتْ لهجته أقل حدَّة وعنف ما أشعرها قليلًا بنوع من الطمأنينة فانتبهت بينما أردف هو بصرامة:

– عايزك تعرفي كل صغيرة وكبيرة عن العيال دي، قرايبهم في القاهرة وبرا القاهرة، وكل مكان ممكن يتواجدوا فيه تحطي عليه مراقبة، عايزهم يبقوا تحت عنينا طول الوقت.

صمت ثانية وهو يقلِّب أمرًا ما في رأسه ثم قال:

– العيال دي مش لوحدها، فيه حد تاني معاهم بيساعدهم لازم تعرفي هو مين وبشكل كبير هيكون هو اللي مخبيهم عنده.

لم ترد، طفقت تهزُّ رأسها إيجابًا، بينما سرت في أوردتها حمم خوف عاتية، كفيلة بحرق كل ما يعترض طريقها.

* * *

ارتشف محروس عدة رشفات من كوب الشاي وهو يُمعن التفكير ثم قال بحزم وهو يباعد بين ساقيه:

– لازم ناخد حذرنا من طارق، لهفته على أخد البرديات مش مطمئنة، وبعدين ده ممكن في أي لحظة يسلمنا للشرطة.

تساءل خميس بقلق وهو ينقل بصره بين الاثنين:

– وإيه اللي يخليه يعمل كدا؟

– اللي زي طارق البرديات بالنسبة له خبطة العمر، اكتشاف عظيم، شهرة وأضواء، حلم كل عالم آثار.

– وفلوس برضه.

قالها زغلول فرد عليه محروس نافيًا:

– إطلاقًا، طارق من عائلة ثرية جدًّا، وآخر حاجة يفكر فيها الفلوس، اللي يهمه فعلًا هي البرديات.

زادت حيرة خميس ففرك كفيه متسائلًا بقلق:

– والعمل إيه دلوقتي؟

– ميخدش البرديات غير لما نتأكد إنه فعلًا هيساعد في إثبات براءتكم.

هزَّ خميس رأسه موافقًا:

– خلاص، بكرا نشوف هيعمل معانا إيه، وهيرتب لنا الأمور مع الحكومة إزاي؟

أيَّد محروس كلامه وأضاف:

– وبكرا هتقابلوه برضه في مكان عام، عشان لو فيه كمين لكم تقدروا تتحركوا بسرعة، وعامة أنا مرتب لكم المقابلة في مكان أمان.

هتف زغلول بسعادة موجهًا حديثه إلى محروس:

– الله ينور عليك يا ابن خالتي، مش عارفين كنا هنعمل إيه من غيرك، يا بتاع السيما يا أبو دماغ عالية.

أطلق محروس ضحكة عالية وقد راقه الأمر ثم قال بثقة:

– لولاي كان زمانكم متعلقين في حبل المشنقة يا شوية سواذج.

* * *

تقدم طارق نحو محطة مصر بصحبة شخص فارع الطول ممتلئ الجسد يرتدي حلَّة سوداء قاتمة. دلفا سريعًا داخل المحطة متوجهين إلى رصيف قديم من أرصفة المحطة، بناء على المكالمة التي تلقاها طارق من خميس منذ دقائق. كان الرصيف شبه خالٍ عدا بعض الباعة الجائلين الذين جلسوا يلتقطون أنفاسهم وبعض عمال المحطة. تجول الاثنان بضع دقائق بحثًا عن خميس فلم يعثرا له على أثر. ظهر التوتر على وجه طارق وأخذ يدور بعينيه في المكان حوله بعصبية، لكن ثوان قليلة وتهللت أساريره وخميس يهتف به:

– أستاذ طارق.

التفت ناحية الصوت ليجد خميسًا يقف خلف سور حديديٍّ عالٍ يفصل الرصيف عن باقي المحطة، اتجه طارق والشخص بصحبته سريعًا نحو خميس. تصافحا من خلال فُرجة السور وخميس يسأل متوترًا:

– عملت إيه يا أستاذ؟

أشار طارق إلى الشخص برفقته وقال بسعادة وثقة عالية:

– العميد رشاد المنسي، جاي يطمنك بنفسه على الوضع.

ابتسم الرجل بثقة وطفق يقول بحماسة وعيناه تفحصان خميسًا بدقة:

– اطمن خالص يا خميس، الوضع في صالحك تمامًا، ومع شهادة طارق بيه والأدلة اللي معاه والبرديات ده كله هيخدم موقفك في القضية وهتتحولوا من متهمين إلى شهود ده وعد مني يا خميس.

كلمات الرجل كانت واثقة حاسمة ولهجته كانت مطمئنة للغاية فسرى في جسد خميس شعور بالارتياح.

- وإيه المطلوب مني دلوقتي؟

- تسلِّموا نفسكم، وتقدموا البرديات للنيابة والباقي علينا، متقلقش خالص.

تلفَّت خميس حوله بحذر ثم أشار إلى زغلول الذي كَمِن غير بعيد، فاقترب بخطًى سريعة منهم فيما زفر طارق بحرارة وابتسم مشجعًا خميس:

- اطَّمن، أنا في ضهرك ومعاك لحد ما تخرج من القضية بالسلامة.

بَتَرَ كلامه وتجمَّد في حلقه وهو يشاهد شخصين يركضان نحو خميس وزغلول بسرعة هائلة فصرخ بفزع:

- اهرب يا خميس، اهرب.

اجتاح الرعب جسدي خميس وزغلول فأطلقا ساقيهما للريح ومن خلفهما المطاردان. أخذ طارق يواصل صراخه بينما قفز العميد رشاد من فوق السور محاولًا اللحاق بهما. أمسك خميس بيد زغلول وانعطف يسارًا وقطعا ممرًّا قصيرًا، ثم صعدا سلَّمًا من بضع درجات ليجدا أنفسهما في ممر آخر أطول من سابقه ممتلئ بآلات ومعدات تفادياها بالكاد. وصلا حتى نهاية الممر فوجدا جدارًا إسمنتيًّا أمامهما فأصابتهما الصدمة بينما أصوات الأقدام تقترب منهما. ظهر الغضب والضيق على وجه خميس وتحفَّزت كل عضلة في جسده استعدادًا لما سيكون لولا أن هتف زغلول بلهفة:

- فيه باب هناك.

أشار قريبًا منهما إلى باب جانبي لم يدرِ خميس كيف لم يلْحظه من قبل فاندفعا إليه سريعًا ليجداه مغلقًا على حين ظهر الرجلان في أول الممر وهما يركضان نحوهما، فصرخ خميس بغضب ودفع الباب بكتفه بقوة فانفتح على مصراعيه فعبره وهو يجذب يد زغلول ليجدا أنفسهما في قلب محطة مصر حيث أمواج البشر المتلاحقة. تباطأت حركتهما بسبب الزحام، فتمكن أحد الملاحقين من إدراكهما. صرخ خميس حاثًّا زغلولًا على الإسراع لكن الرجل انقض على زغلول وأسقطه أرضًا فارتد خميس إلى الخلف محاولًا تخليصه، فوجَّه ركلة عنيفة إلى وجه الرجل. عمَّ الهرج والمرج وبدأت بعض النسوة في إطلاق الصرخات، بينما اشتبك خميس وزغلول مع الرجلين في قتال غير متكافئ، ليتلقيا كمًّا هائلًا من الركلات واللكمات، فترنَّح خميس قبل أن يُلقي به الرجل أرضًا وهو يفتشه بدقة بحثًا عن البرديات وكذا فعل الآخر مع زغلول. لم يعثرا على شيء فأمسك الرجل بخميس ودفعه أمامه بقوة طالبًا منه الانصياع والتحرك معه، لكن ظهور الشرطة المفاجئ أربك الرجلين فلاذا بالفرار تاركين خميسًا وزغلولًا يتأوَّهان بشدة. حاول خميس النهوض فلم يقوَ فصاح بصوت واهٍ:

– اهرب يا زغلول، اهرب.

قالها وتهاوى أرضًا من شدة الإعياء فرمقه زغلول بحزن بالغ وهو يختفي سريعًا وسط الزحام. هرول الرجلان خارج المحطة متوجهين ناحية سيارة حمراء مُعْتمة الزجاج، طرق أحدهما على زجاج السيارة فانزاح جزء منه كاشفًا عن وجه نور الجامد فيما قال الرجل بارتباك:

– الشرطة ظهرت فجأة وقبضت على واحد منهم، والتاني هرب.

تساءلت بصرامة:

- والبرديات؟

- فتشناهم كويس، مفيش حاجة معاهم.

أشارت إليها بالانصراف وأعادت غلق الزجاج. ظلت صامتة للحظات قبل أن تنفجر بغضب عارم وأخذت تضرب مِقود السيارة بيديها بعنف لبضع ثوانٍ. بالكاد تمالكت أعصابها ووضعت يدها على وجهها وأخذت تلتقط أنفاسها ببطء وانتظام حتى هدأت تمامًا. تناولت هاتفها المحمول من أمامها وطلبت أحدهم. جاءها صوت الطرف الآخر فقالت باضطراب:

- أيوه يا دكتور، مع الأسف هربوا منا.

امتعض وجهها قليلًا فيما بدا أنَّ محدثها غاضب بشدة فردَّت معتذرة:

- الأمر كان غصب عنا، الشرطة ظهرت وقبضت على واحد منهم.

صمتت لثوانٍ وهي تستمع إلى محدثِّها ثم قالت:

- أيوه، طارق كان موجود ومعه شخص غريب.

صمتت ثانية ثم قالت:

- طارق تحت مراقبتنا طول الوقت، لولا كدا كان زمانه أخد منهم البرديات.

زاد انفعالها وصاحت بشراسة:

- احنا صبرنا كتير على الكلب ده، لو اضطر الأمر هقتله بنفسي، مش فاهمة أنت ساكت عليه لحد دلوقتي ليه؟

همَّت بمواصلة الحديث لولا أن ارتفع رنين هاتف آخر فقالت بلهفة:

– طارق بيكلمني، هرد عليه وأبلغك التطورات.

تناولت الهاتف الآخر وتحوَّلت نبرتها في ثوانٍ إلى الوداعة والهدوء بينما جاءها صوت طارق قلقًا مضطربًا:

– نور، لازم أقابلك حالًا.

– خير يا طارق حصل إيه؟

– بخصوص البرديات، برديات مخيون.

لمعت عيناها وتظاهرت بالاندهاش والذهول:

– أنت بتقول إيه؟

أجابها بلهفة طاغية:

– هفهمك كل حاجة بعدين، المهم دلوقتي إن الشخص اللي معاه البرديات اتقبض عليه، أنا هعرف هو في قسم إيه وهبلغك، عشان تقابليني هناك، محتاجك معايا ضروري.

تبسمت بظفر وسعادة:

– أكيد، لازم أكون موجودة.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

برلين 1942م

تساقطت الثلوج بكثافة تلك الليلة، غطَّت الطرقات وعطلت حركة السير. لم تشهد أوروبا موجة صقيع كهذه منذ عقود. داخل شقته الصغيرة في إحدى ضواحي برلين أخذ عالم المصريات الألماني فريدريك هانزا يفرك كفيه جلبًا للدفء، ثم سارع بجذب قطعتي خشب ألقى بهما داخل المدفأة ليزيد حرارتها. وقف يتأمل النيران المشتعلة لثوانٍ قبل أن يستدير عائدًا إلى مكتبه. سحب كرسيَّه وجلس عليه بهدوء معيدًا ضبط الإضاءة أمامه ثم التقط برفق وعناية بردية فرعونية من أمامه وراح يتأملها بانبهار بالغ، وهو يغمغم:

– من يصدِّق هذا، لولا أني أشاهده بعيني لكذبت الأمر برمَّته.

اتسعت ابتسامته واستطرد بحماسة وهو يهزُّ البردية:

– كم أتوق إلى رؤية العالم وهو يستقبل هذه المفاجأة.

– هذا في حالة ظللت على قيد الحياة أيها البروفيسور.

أصاب هانزا الفزع فانتفض من مكانه كالملدوغ ملتفتًا ناحية الصوت بعينين مشدوهتين فأبصر رجلًا في الأربعينيات من عمره صارم الملامح يرتدي حُلَّة سوداء وهو يصوب مسدسه ناحية هانزا الذي ارتعش جسده وتساءل بخوف:

– من أنت، وماذا تريد؟

أجابه ببرود:

– من أنا لن يعنيك في شيء، ما يعنيك هو ما أريده، أريد البردية.

تشبثت يد هانزا بالبردية بحركة لا شعورية، وتساءل بتوتر:

– كيف علمت بشأن البردية؟

– هذا عملي بروفيسور، تتبُّع أيٍّ من تلك البرديات والتخلص منها.

صمت قليلًا ثم استطرد بنفس بروده:

– وممن يعثر عليها.

قالها وأطلق رصاصة صامتة اخترقت جمجمة هانزا فانفجرت منها الدماء وسقط على كرسيه جثة هامدة. اقترب الرجل ببطء واستخلص البردية من يد هانزا وأخذ يتفحصها بعينيه لبعض الوقت قبل أن يتوجه بها ناحية المدفأة ويُلقي بها وسط النيران المتأجِّجة. لكن في تلك اللحظة تحطَّم باب الحجرة بعنف هائل واندفع أكثر من خمسة جنود ألمان شاهرين أسلحتهم في وجه الرجل الذي تأملهم بذُعر بالغ وأعلاهم رتبة يصرخ فيه بإنجليزية ركيكة وبلهجة آمرة قاسية:

– ألقِ سلاحك، وإياك أن تتحرك.

تلفَّت الرجل حوله مبهوتًا وقد أخذته المفاجأة فانقضَّ عليه جنديان طرحاه أرضًا وكبَّلا حركته تمامًا.

* * *

عقد هتلر ساعديه خلفه وأولى ظهره لباب حجرته وهو يتأمل خارطة ضخمة تحتل جزءًا كبيرًا من الجدار أمامه. أخذ يتنقل ببصره سريعًا مدققًا

النظر في النقاط التي تبرز تمركز قواته والنقاط الأخرى التي تبرز المواقع التي فقدها. كان باديًا عليه الضيق بجلاء وكل ذرة في ملامحه تقطر سخطًا وحنقًا. الأنباء الآتية من العلمين كانت مفجعة، قواته معاناتها تتزايد كل لحظة، الصحراء القاتلة من ناحية والحلفاء من ناحية أخرى. حلم الرايخ الثالث أصبح في مهب الريح. زفر بحرارة وعمق وهو يستمع إلى الطرقات على الباب خلفه ثم صاح بحزم ومن دون أن يلتفت:

- ادخل.

انزاح الباب كاشفًا عن هينريش هملر قائد الشرطة السرية الألمانية (الجستابو) والساعد الأيمن للفوهرر. دلف الرجل وهو يؤدي التحية النازية الشهيرة ثم وقف باعتداد منتظرًا أن يقطع الفوهرر صمته. لم يتأخر كثيرًا استدار مُمعِنا النظر في وجه هملر البارد الجامد قبل أن يتساءل بتوتر بالغ وشاربه يهتز:

- هل من أنباء عن الوضع في العلمين؟

- رومل ما زال صامدًا، ويُبلي بلاء حسنًا.

- حتى متى يظل صامدًا، النقص في الإمدادات قد يكلفنا الكثير، أخطأنا حين اعتمدنا على الإيطاليين في مد قواتنا بالمحروقات والمؤن.

هزَّ هملر كتفيه بيأس:

- مع الأسف، لا نملك حاليًّا فعل شيء إزاء هذا الأمر.

- لا بد من إيجاد دعم داخل مصر، لو حدث هذا ستنقلب موازيين الحرب.

صمت قليلًا وقال بحزم:

– مصر هي حجر الزاوية في هذه المعركة، لو نجح رومل في الانتصار ستصبح قناة السويس تحت سيطرتنا وسيفقد الإنجليز خطوط مواصلاتهم وإمداداتهم.

قلب هملر شفتيه وهو يقول:

– نمتلك هناك دعمًا شعبيًّا هائلًا وأيضًا دعمًا سياسيًّا، الملك فاروق يدعم موقفنا ويؤيد جهودنا. العرب لم ينسوا خيانة الإنجليز لهم في الحرب العظمى الفائتة وإخلالهم باتفاقياتهم وعدم منحهم الاستقلال. وأيضًا الوضع في مصر مشتعل هذه الأيام ضد الإنجليز، الأيام القادمة حُبْلى بالكثير.

صمت هُنَيْهَة ثم استطرد مبتسمًا:

– هل اطلعت على تقارير الأمس؟

كان هتلر قد اطلع عليها أكثر من خمس مرات. راقتْه بشدة، وأشبعت غروره وكبرياءه. لم يرد على هملر فطفق الأخير يقول بجذل:

– أثناء غاراتنا على المواقع البريطانية في مصر يحتشد آلاف المصريين في الشوارع هاتفين باسم الفوهرر.

أضاء وجه هتلر ولمعت عيناه وهملر يُتبع:

– أحسن جوبلز صنعًا بالترويج لشائعة اعتناقك الإسلام واتخاذك اسم محمد. المصريون يلوِّحون للطيران الألمانيِّ هاتفين «اضرب يا حاج محمد هتلر» وأيضًا يهتفون «الله حي الحاج محمد هتلر جاي». لقد استفدنا كثيرًا من دعم مفتي القدس أمين الحسينيِّ لنا، ضمِن لنا ظهيرًا شعبيًّا قويًّا لدى العرب بعد مساندتنا موقفهم ضد اليهود في فلسطين.

ابتسم هتلر في قرارة نفسه وشعر بنشوة عالية لكنه على الرغم من ذلك قال:

– نحتاج إلى ما هو أكثر من الدعم الشعبيِّ، نريد مساندة عسكرية تدعم رومل في معركته الفاصلة.

– الملك فاروق مقيد اليدين، سطوة الإنجليز هناك بلا حدود.

حلَّ الصمت لبعض الوقت تأججت خلاله الأفكار داخل عقل هتلر قبل أن يقول بفضول:

– هل من جديد بشأن ذلك الجاسوس الإنجليزيِّ؟

لمعت عينا هملر بوحشية وأجابه قائلًا:

– إنه بالأسفل الآن، تسلمه هارير لتوِّه.

أطرق هتلر برأسه لثوان قبل أن يرفعها قائلًا بثقة عاتية:

– هذا يعني أنه سيبوح بما لديه.

– لا ريب في ذلك، هارير قادر على انتزاع الاعترافات من الصخر الجلمود، ومهما بلغت صلابة ذلك الرجل ستتهاوى حصونه ومقاومته أمام هارير وسيرتمي تحت قدميه راجيًا منه الإذن بالتحدث.

تقدَّم هتلر ناحية مكتبه وجذب مقعده ودفع نفسه عليه وهو يلوِّح بكفِّه قائلًا بحيرة:

– الأمر مُحيِّر للغاية، هذا الجاسوس خلفه سرٌّ غامض، الظروف والملابسات التي كشفنا خلالها أمره تشي أن هناك شيئًا خطيرًا خلفه.

ضاقت عينا هملر وهو يقول بثقة:

– أوافقك الرأي أيها الفوهرر، حين شكَّ رجالنا فيه منذ شهر وبدأوا في مراقبته، اكتشفوا أن الجاسوس بدوره يتابع عالم أثار ألمانيًّا متخصصًا في المصريات، وأنه يرقب حركاته وسكناته، وحين ألقينا القبض على الجاسوس كان قد ألقى ببردية فرعونية داخل المدفأة، لكن مع الأسف لم نستطع إنقاذها من النيران كانت قد أتتْ عليها بالكامل.

صمت لثوانٍ والتقط نفسًا عميقًا واستطرد:

– المريب أيضًا أنه أثناء القبض عليه لَكَمَه أحد الجنود في وجهه فسقطت إحدى أسنانه، فجُنَّ جنون الإنجليزيِّ وارتمى أرضًا محاولًا التقاطها، الأمر الذي استرعى انتباه الجنود فتفحص أحدهم السنَّ المكسورة ليجده مجوَّفًا تختفي داخله كبسولة سوداء، بعد فحصها وجدنا أنها تحوي مادة سامة سريعة المفعول، مادة مجهولة لنا غير السيانيد، وهذا يعني أن الرجل يُخفي سرًّا خطيرًا يجعله يفضل الموت على البوْح به .

بدا الغضب على ملامح هتلر وراح يدقُّ بقبضته على سطح مكتبه بعصبية:

– الليلة وقبل عودتي إلى وكْر الذئب يجب أن يكون أمامي تقرير كامل عن هذا الجاسوس. أريد أن أعرف كل شيء خلفه، وما سبب سعيه خلف عالم الآثار، ولِمَ حرق البردية؟

– لا تقلق يا سيدي، قبل غروب الشمس سيكون لديك تقرير شامل ووافٍ عن الأمر برمَّته.

قالها وشدَّ قامته باعتداد مؤديًا التحية وغادر المكان تاركًا الفضول ينْهش كل ذرة في جسد هتلر.

* * *

في أسفل المبنى وفي حجرة صغيرة مصمتة بلا نوافذ، فقط باب معدنيٌّ يفصلها عن باقي الغرف، حتى جدرانها صُمِّمت بطريقة تمنع تسرب الصوت من داخلها مهما بلغت شدته. وقف هارير بصلْعته وعينيه الضيقتين الغائرتين وجسده النحيل يرقب الرجل المقيَّد إلى سرير طبيٍّ بأصفاد حديدية والفزع والهلع يتقافزان من عينيه. وفي أحد أركان الحجرة وقف جنديان يشاهدان ما يحدث حولهما بعيون خائفة مُلتاعة من دون أن يجرؤ أحدهما على التفوُّه بكلمة، فقط في أعماق أعماق عقليهما كانا يلعنان حظهما العثِر الذي ساقهما إلى الوجود بصحبة هارير. مهمتهما كانت تقتصر على تقديم المساعدة له في حالة احتاج إليها، وإدخال المطلوب استجوابهم وإخراج ما تبقَّى منهم بعد انتهاء هارير من عمله.

اقترب هارير من الرجل وحدَجه بنظرة نارية مميتة وراح يستعرض بعض الأدوات الجراحية أمامه. حمل مبضعًا لوَّح به في وجه الرجل وهو يقول في جذل وحشيٍّ:

– أُصدقُك القول كم أود أن تظل صلبًا جامدًا حتى أستمر في عملي هذا أطول فترة ممكنة.

لمعت عيناه ببريق دمويٍّ واستطرد:

– أرجوك لا تستسلم سريعًا وتحرمني لذتي هذه.

قالها وهو يُمرِّر المِبضع على جسد الرجل الذي حاول التماسك وإظهار عدم مبالاته لكنه رغمًا عنه شهق بارتياع والمبضع يستقر عند أنامل قدميه وهارير يقول في شراسة:

– سنبدأ ببعض اللهو والعبث الذي سيساعد على إنعاش ذاكرتك، وفقط سنلهو لمدة ساعة واحدة وبعدها نرى رأيك فيما يجري.

على الرغم من أن الرجل عنيد صلب المِراس، تلقَّى تدريبات عنيفة على تحمل أشد ألوان العذاب فإنه لم يصمد أمام هارير. دقائق وانطلقت صرخاته صرخ وصرخ وفقد الوعي المرة تلو الأخرى، انهار وأعلن استسلامه، توسَّل وتضرَّع، أقسم أن يبوح بما لديه، لكن هارير قال في صرامة أرعبت حتى الجنديين اللذين وقفا يرتعشان من هول ما يجري.

– صهٍ صهٍ، لا حديث قبل أن تمر الساعة.

وحين انتهت كانت كل ذرة في جسد الإنجليزيِّ تصرخ ألمًا وهلعًا. توقف هارير عن عمله وسأله بصرامة:

– لحساب من تعمل؟

تأوَّه الرجل بعنف وأخذ في البكاء، فكرر هارير السؤال ثانية بلهجة حادَّة فأجابه الرجل بصوت مبحوح مخنوق ومرتعش:

– أنا إنجليزيٌّ، لكن لا أعمل لحساب الحكومة البريطانية.

– الأمريكان إذن؟

– لا.

– من إذن؟

– لا أعمل لحساب أيٍّ من الحكومات، أنا أعمل لحساب الأخوية.

استرْعت الكلمات انتباه هارير فاقترب من الرجل وتساءل بفضول ولهفة:

- الأخوية؟!

- أجل، أخوية الصخرة.

رشقه هارير بنظرة حادة وقال بغلظة:

- إذن، يجدر بك أن تخبرني بكل شيء حتى لا أبدأ اللهو والعبث مجددًا.

كان الرجل في حالة فزع رهيبة وآلام جسده تفوق احتمال البشر، لذا لم يُخفِ شيئًا وطفق يُلقي على مسامع هارير ما أصابه بالذهول والارتياع.

- البداية كانت في إسبانيا منذ قرون.

طوال ساعتين لم يكفَّ الرجل عن البوح بما لديه من معلومات فيما أخذ هارير يلهث من فرط الإثارة والانفعال جرَّاء ما يسمعه. حتى الجنديان وعلى الرغم من أنهما لم يفقها كثيرًا مما يقال إلا أن ما طرق مسامعهما كان كفيلًا بأن يصيبهما بالذهول ويسلبهما عقليهما، فراحا يتبادلان نظرات دهشة عارمة والرجفة تسري في جسديهما. فيما التقط هارير مُفكِّرته وجلس يدوِّن بقلمه بعض الكلمات حتى لا ينسى أيًّا من الأحداث وهو يقدِّم تقريره للفوهرر. لكن بغتة انفتح الباب على مصراعيه، وظهر على عتبته ضابط ألمانيٌّ رمق الجميع بنظرة باردة فاحصة، اعتدل الجنديان مؤديين التحية فيما صرخ هارير بغضب:

- أيها الأحمق، غير مصرَّح لأحد بالدخول إلى هنا، كيف تجرؤ؟!

لم يتم عبارته حتى رفع الضابط سلاحه وأطلق زخَّات من الرصاص استقرت في جسد هارير والجنديين فسقطوا صرعى لفورهم، قبل أن يتقدم الضابط ناحية الجاسوس الذي رمقه بتوسل وتضرع وقال باستجداء:

- أرِحْني يا أخي.

تأمله الضابط بشفقة بالغة وأخذ يربت على رأسه ثم أخرج من جيبه كبسولة سوداء وضعها في فم الرجل الذي امتلأت عيناه بامتنان بالغ ثم انتفض جسده بعنف وسال الزَّبد من فمه وغادرت الروح الجسد الممزَّق. تعالت أصوات أقدام ثقيلة تركُض ناحية الغرفة. رمق الضابط الباب بجمود ثم فرد كفه لتظهر كبسولة سوداء أخرى ألقاها في فمه وابتسم بظفر للجنود الذين اندفعوا داخل الحجرة، وقبل أن تبدُر من أيهم أدنى حركة كان الضابط قد سقط أرضًا وخَبَتْ في عينيه علامات الحياة. ثوانٍ واندفع هتلر بصحبة هملر إلى الحجرة والغضب يقطر من وجهيهما. تأمل هتلر المشهد حوله بسخط بالغ وهو يتوجه ناحية المنضدة التي استقرت عليها مفكرة هارير. التقطها وراح يقلِّب صفحاتها حتى استقر عند صفحة تحمل تاريخ اليوم. شعر بالرَّجفة تسري في جسده والفزع يجتاحه وهو يتأمل الكلمات القليلة التي دوَّنها هارير، وعلى الرغم من أنها لم تكنْ كافية ليُلمَّ بالأمر فإنها أصابته بهزَّة عنيفة وأشعلت داخله نار فضول هائلة، وهو يردد الكلمات بصوت مرتفع:

– الأخوية، إسبانيا، البرديات، نبع الحياة، الخلود، المقابر في مصر.

التفت ناحية هملر متسائلًا بذهول:

– ما الذي يعنيه هذا؟

هزَّ هملر رأسه بحيرة بالغة وقد احتبست الكلمات في حلْقه من فرط الإثارة والفضول، وراح هو والفوهرر يتبادلان نظرات دهشة وعشرات الأسئلة تتفجَّر داخل عقليهما.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

الولايات المتحدة الأمريكية 1996م

تلفَّت جورج كامبل أستاذ التاريخ القديم بجامعة فيرجينيا حوله بحذر وهو يتأمل الكنيسة الصغيرة أمامه بشيء من الرهبة والخوف، فمنذ وصلته تلك الرسالة الغامضة والقلق يهيمن عليه بشكل بالغ والمخاوف تَلِحُّ على ذهنه. كانت من صديقه الحميم البروفيسور جاري وولش المختفي منذ حوالي عام. كانت رسالة مقتضبة للغاية (كامي، قابلني في كنيسة سان سبستيان. الإثنين، الثانية ظهرًا). لم تكن الرسالة موقعة باسم أحد، لكن كامبل أدرك لفوره أنها من وولش بسبب مخاطبته «كامي». وحده وولش كان يخاطبه بهذا الاسم. حتى طريقة وصول الرسالة كانت مبهمة للغاية. سيدة عجوز طرقت باب كامبل وناولته الرسالة بعد أن قالت إنها خدمة تؤديها لصديق، ولا تعلم غير ذلك.

تجاوز مدخل الكنيسة بخطوات بطيئة متوجسة. كانت الهواجس تتلاعب بعقله بحدة، فمنذ اختفاء وولش المفاجئ والتكهنات لا تتوقف والشائعات تتزايد. وصل حتى بهو الكنيسة وجده خاليًا تمامًا، فتوقف به عدة دقائق لكن لم يظهر أحد. انتابه الشك وأصابه التوتر، فأخذ يتلفَّت حوله بحذر ثم تحرك ناحية الممر الذي يصل البهو بقلب الكنيسة، لكن فجأة ظهر ذلك القس خارجًا من إحدى الغرف وهتف في كامبل بصوت خفيض:

- كامبل.

التفت ناحية الصوت بلهفة فأصابه الذهول. كان وولش يرتدي زيًّا كنسيًّا وقد نمت لحيته بغزارة. توجه ناحيته سريعًا فجذبه وولش داخل الغرفة وأغلق بابها بإحكام

وقف كامبل يلْهث من فرط المفاجأة وهو يتطلع إلى صديقه. سحب وولش كرسيًّا وجلس أمام طاولة صغيرة فجلس كامبل مقابله وهو يتساءل بفضول عارم:

- وولش، ما الذي يجري؟

بدا الخوف جليًّا في عيني وولش بنظراته الزائغة المضطربة. وصار كما لو أن سنوات عمره الستين قد قفزت مائة عام. لطالما كان كامبل بارعًا في قراءة أفكار الآخرين، واكتشاف ما تخفيه ملامحهم، لكنه في تلك اللحظة فشل تمامًا في التكهُّن بما وراء وولش، فراح يُمعن النظر في وجهه منتظرًا سماع ما يشفي غليله، وإن كان في داخله تولَّد خوف هائل ناحية هذا المجهول الذي حوَّل وولش إلى رُكام متهالك بالكاد يجلس أمامه. ابتلع وولش ريقه بصعوبة وراح يعبث في لحيته بتوتر لبعض الوقت ثم رفع رأسه وقال بصوت أشبه بالغمغمة:

- أمر مخيف يا صديقي، مخيف فوق ما تتخيل.

- هل تورطت في أمر ما؟

زفر بحرارة ثم اقترب من كامبل وهمس:

- تَعرِف منطقة الوادي العظيم؟

- أجل، في أريزونا، زرتها كثيرًا، وأجريت فيها العديد من الأبحاث.

أومأ وولش برأسه وراح يضيف بلسان مرتعش:

– منذ حوالي عام كنت أقود بعثة أثرية هناك، كنا نُنقِّب عن مقبرة هندية. بعد عناء عثرنا عليها وبدأنا عملنا فيها.

توقف عن الكلام وعيناه تومضان بوميض غريب ثم أردف بصوت عميق كأنه قادم من أعماق بئر سحيقة:

– حدث انهيار داخل المقبرة، كاشفًا عن فجوة تقود إلى أسفل.

تساءل كامبل بفضول:

– إلى أي شيء تقود؟

– إلى مقبرة أخرى.

تراجع كامبل في جلسته وهزَّ رأسه.

– أمر كثير الحدوث، خاصة في تلك المناطق التي تحوي مقابر عديدة، من المألوف أن تجد مقبرة تعلو أخرى

– لم تكن مقبرة عادية كامبل.

– ماذا كانت إذن؟

صمت قليلًا وهو يتأمل الفضول الذي شعَّ من عيني كامبل ثم ألقى مفاجأته المدوية ببطء شديد:

– لقد كانت مقبرة فرعونية.

انتفض كامبل في جلسته وفَغَرَ فاه من الدهشة وصاح بذهول طاغٍ:

– مستحيل.

ابتسم وولش وهزَّ رأسه بحزن وهو يقول بشرود:

– لقد رأيتها بعيني، وتجوَّلت فيها، أنا من عثر عليها يا صديقي.

– وكيف وصل الفراعنة إلى هنا؟

أجابه بحسرة:

– هذا ما كنت بصدد كشفه.

تساءل كامبل:

– وما الذي منعك؟

زفر بمرارة:

– بعد ساعات اكتظ المكان بأصحاب النظارات السوداء وأحاطوا بالموقع.

– من هؤلاء؟

مطَّ وولش شفتيه وأغمض عينيه:

– ممن يحملون تصاريح تتيح لهم فعل أي شيء.

تساءل كامبل بقلق:

– من يتبعون؟ جهة حكومية؟

هزَّ رأسه بحيرة:

– لا أعلم على وجه الدقة، بحثت كثيرًا لكن لم أصل إلى شيء.

– وماذا فعلوا هناك؟

أجابه وولش بأسى:

– أبعدونا عن المقبرة، وصادروا كل شيء.

– والمقبرة؟

– فُكِّكت قطعة قطعة وحملوها معهم.

بدت الحيرة والذهول على وجه كامبل:

– ولِمَ يُقدمون على هذه الفعلة؟

أجابه في ثقة:

– هناك من يود أن يظل الأمر طيَّ الكتمان، لقد هُدِّدنا في حالة تحدثنا، وأننا سنُرمى بالجنون، وسيكون مصيرنا كالمهووسين بالكائنات الفضائية.

– ولِمَ اختفيت طوال الفترة الماضية؟

أخذ وولش نفسًا عميقًا وقال:

– بعد حوالي شهر بدأت سلسلة من الحوادث الغامضة تلاحق فريق العمل، انتحار، حوادث سير وغيرها، بدا واضحًا لي أن هناك من يرغب في سدِّ كل تلك الأبواب المُشْرعة، وإسكاتنا إلى الأبد.

تنهد بعمق واستطرد:

– أحد علماء البعثة أخبرني قبل وفاته أن السبب هو اكتشاف هؤلاء الغامضين اختفاء مخطوطة من داخل المقبرة.

– مخطوطة؟

– أجل، بردية فرعونية اكتشفوا اختفاءها بعد أن صادروا المقبرة.

– وأين ذهبت تلك البردية؟

سقط وولش في صمت عميق، وأغمض عينيه بضع ثوانٍ ثم فتحهما ببطء قائلًا:

– أنا من أخذتها عند دخولنا المقبرة.

اضطرب كامبل وبدا في عينيه الفزع:

– إذن أنت طريدتهم؟

أومأ برأسه إيجابًا:

– أنا آخر من تبقَّى من فريق العمل الذي عثر على المقبرة، وسرعان ما سيصلون إليَّ، إنهم حاذقون في ذلك، أنا في ورطة رهيبة يا صديقي.

توترت أعصاب كامبل وفرك كفيه بعصبية:

– كيف أستطيع مساعدتك وولش؟

– بالنسبة لي شخصيًّا لن تقدر على الإتيان بشيء، أنا أنتظر الموت لا مفر من ذلك.

بدا الذهول على وجه كامبل، على حين نهض وولش وأخرج من دولابه حافظة تحوي مجموعة من الأوراق ولفافة جلدية حملها عائدًا إلى الطاولة ودفع بها أمام كامبل الذي تأملها بحذر وولش يقول باستجداء بالغ:

– مساعدتك لي أن تُكمل ما بدأته.

تحفَّزت خلايا كامبل وسرت رعدة في جسده فضغط على شفته السفلى وضاقت عيناه وولش يفضُّ الجراب الجلديَّ برفق مُخرجًا بردية فرعونية، فشعر كامبل بقشعريرة باردة تجتاح كيانه وهو يتأملها فصاح بلهفة:

– إنها خريطة؟

– أجل، خريطة تقود إلى مقبرة أخرى، مقبرة تحوي كل الأسرار والحقائق حول تلك الرحلة.

تَعاظَم فضول كامبل وانحنى بجسده إلى الأمام:

– أيُّ رحلة؟

ابتلع وولش ريقه بصعوبة وراح يُجفف عرقه الغزير وأردف بحماسة:

– حين دخلنا المقبرة تمكنت من قراءة النصوص المدونة على الجدران. كانت تحكي عن رحلات وبعثات فرعونية وصلت إلى الأمريكتين منذ آلاف السنين، واستوطنوا واستقروا في أماكن عديدة متفرقة وشيدوا الكثير من المعابد والمقابر. وتخليدًا لذكراهم في مصر القديمة حُددتْ مواقع تلك المقابر ودُوِّنت أسرار الرحلة وأُودِع كل ذلك في مقبرة في مصر تحوي رفات ثلاثة من البحارة الذين خاضوا غمار تلك الرحلة ثم عادوا إلى مصر:

بدأ عرق كامبل يتصبَّب ولهاثه يتزايد جرَّاء تلك الإثارة التي أصابت كل ذرة في جسده:

– إذن، تلك البردية لمقبرة أخرى في مصر؟

– أجل، وهي المقبرة الأهم على الإطلاق، بردياتها تحوي خبايا كل تلك الرحلات وأسرارها.

تجلَّى الذهول على وجه كامبل وصاح قائلًا:

– هذا كشف عظيم سيغيِّر خارطة العالم. مفاهيم وحقائق سيطولها التغيير بعد هذا الكشف.

أومأ وولش برأسه مؤمنًا على كلامه:

– أجل يا صديقي، ألغاز وتساؤلات في تاريخ العالم ستجيب عنه تلك المقبرة. أهرامات أمريكا الجنوبية ومعابدها، سفن هنود البيرو وغيرها وغيرها.

صمت قليلًا وراح يهزُّ رأسه قبل أن يُلقي مفاجأته التالية:

– حتى المقابر الأخرى التي أخفوها، الكشف الجديد سيزيل اللثام عنها.

– مقابر أخرى أخفوها؟

اعتدل وولش في جلسته وراح يُلقي على مسامع كامبل ما كاد يُفقده صوابه:

– بعد عثوري على مقبرة الوادي العظيم كاد الفضول يفتك بي، أخذت في البحث والتنقيب في كل مكان حتى التقيت بعد عناء بعميل سريٍّ سابق في الاستخبارات أمدَّني بوثائق خطيرة توثِّق العثور على مقابر عديدة في أوائل القرن العشرين في منطقة الوادي العظيم، وذكرت إحدى الوثائق أن مناطق الوادي العظيم كانت تحمل حتى عصر الهنود أسماء فرعونية قبل أن تُغيَّر على أيدي المستوطنين الجدد.

– إذن، تلك ليست المقبرة الأولى في الوادي العظيم؟

– أجل، سبقها الكثير، لكن طالهم أيضًا التدمير والإخفاء، وليس الوادي العظيم وحده، أيضًا منطقة كاريونج في أستراليا اكتشفوا هناك هرمًا منحوتًا من الصخر يحمل نقوشًا فرعونية، رأيت صورة له في الوثيقة قبل تدميره، لكن الأهم من ذلك ما اكتُشف في المنطقة ذاتها، مقبرة الملك الفرعوني (نفرتي رو).

كاد كامبل يفقد وعيه من هول الإثارة التي راحت تنصبُّ عليه:

– الملك نفرتي رو؟

– أجل، اكتُشفت مقبرته في منطقة كاريونج في أوائل القرن العشرين، ووجدوا على جدرانها نقوشًا تدوِّن أسرار الرحلة البحرية التي قادها الفرعون إلى تلك المنطقة، وبعد وفاته دفنه شقيقه هناك.

صمت قليلًا مستجمعًا أنفاسه ثم عاود الحديث:

– كل تلك الكشوفات أُخفيت وعُتِّم عليها، ومن جرؤ وحاول التحدث عنها يكون مصيره كمصير أفراد بعثتي، وإن نجا من الموت سيُرمى بالهوس والجنون، حتى تلك الوثائق التي أمدني بها العميل الاستخباراتيُّ نصحني بعدم نشرها ما دمت لا أملك دليلًا على صحة ما فيها، هناك قوة هائلة تقف بالمرصاد للحيلولة دون ظهور تلك الكشوفات.

زفر بحرارة وأتبع:

– لكن لو استطعنا الوصول إلى المقبرة في مصر سيتغير كل شيء، سيكون لدينا أدلة أوضح من ضوء الشمس وحينها لن يجرؤ أحد على الإنكار أو الرفض.

أطْبق الصمت عليهما لبعض الوقت قبل أن يُنهيه كامبل بتساؤله القلِق:

– ما الذي تنشُده مني وولش؟

دفع وولش بحافظة الأوراق أمامه وقال بلهفة:

– لقد درست البردية جيدًا، وستجد هنا مع الوثائق مفكرتي الشخصية ومجموعة أوراق بخط يدي، دونت فيها كل ما استطعت معرفته عن هذا الأمر.

ابتلع ريقه وهو يدقق النظر في عيني كامبل الخائفتين:

– بعد ذلك يأتي دورك، مهمتك مواصلة البحث والتنقيب واستكمال هذا الطريق.

تزايد قلق كامبل وارتعش لسانه وهو يقول مرتبكًا:

– لست خبيرًا في هذا المضمار، أخشى أن أخذلك يا صديقي.

رد عليه وولش بثقة عاتية:

– أثق بك إلى أبعد حد، شغفك وولاؤك للتاريخ الإنسانيِّ سيدفعانك إلى إخراج تلك الأسرار للعالم وإماطة اللثام عنها.

– وأنت وولش؟

ابتسم بحزن وأطرق برأسه مليًّا قبل أن يرفعها:

– أنا أنتظر الموت، سيصلون إليَّ في أيِّ لحظة.

– تعالَ معي، وسأوفر لك ملاذًا آمنًا، ونُكمل سويًّا هذا الطريق.

– وحدك أفضل، وجودي سيكون عبئًا عليك وسيعوقك، لكن بمجرد موتي لن يعلم أحد بما دار بيننا، وهذا سيكفل لك حرية الحركة.

أطلق تنهيدة ثم أردف:

– يجب أن تغادر الآن، وتوخَّ الحذر بشدة، ولا تثق في أيِّ كان، ولا تحاول التواصل معي ثانية، حتى جنازتي لو أقاموها لا تحضرها، لا أريد أن تلتفت الأنظار إليك.

قالها وران على المكان بعدها صمت مهيب طويل. كانت لحظة وداع حارَّة جياشة بالعواطف الإنسانية النبيلة وكثير من الخوف الذي سكن

القلوب واستوطنها. بعدها حمل كامبل البردية وحافظة الأوراق وغادر نحو المجهول.

* * *

بعد ثلاثة أشهر

القاهرة

ارتشف الدكتور مخيون آخر رشفة من فنجان قهوته وبدأ يلملم أوراقه استعدادًا لمغادرة ذلك المقهى الهادئ في أحد أحياء مصر الجديدة. كان صوت أم كلثوم قد بدأ يسري في المكان مضفيًا حالة من الشجن والألق تزامنًا مع خفوت الإضاءة، لتبدأ رحلة عشاق الليل، الذين اكتظ بهم المكان وبدأ بعضهم في الالتفاف حول رقعة شطرنج أو لعبة نرد. والبعض فضلوا الالتفاف حول جلسة سمر لا تخلو من نميمة مستحبَّة في مثل تلك السهرات. تأملهم مخيون بسعادة وهو يَهُمُّ بمغادرة طاولته لولا أن لمح أحد عمال المقهى يتحدث مع رجل أجنبيٍّ في الخمسينيات من عمره أشار بعدها العامل ناحية مخيون ثم انصرف، فيما رمق الرجل مخيونًا بنظرات فاحصة قبل أن يتوجه ناحيته بخطوات واثقة ويمد يده مصافحًا قائلًا بابتسامة عريضة:

– دكتور مخيون، هل بالإمكان الحصول على دقائق من وقتك الثمين؟

حَدجه مخيون بنظرة متفرِّسة متأملة. كان قد تعوَّد في عمله التعامل مع مثل تلك المواقف. صحفيون أجانب مهتمون بكشف أثريٍّ، أو راغبون في نسج حوار صحفيٍّ، أو بعض المولعين والعاشقين للحضارة المصرية. لكن ذلك الرجل بدا مألوفًا له نوعًا ما، لكنَّ ذاكرته لم تسعفه في التعرف عليه. رسم على وجهه ابتسامة بلاستيكية اعتاد تصديرها في مثل تلك اللقاءات لا

هي تشي بالترحيب ولا الضجر. أشار إلى الرجل بالجلوس فيما عاد هو إلى مقعده. حلَّ صمت قصير تبادل فيه الاثنان نظرات مستشفة قبل أن يقطع الرجل حالة الصمت مداعبًا:

– هل ستدعوني لتناول مشروب ما؟ مشهور عنكم الكرم.

ابتسم مخيون مرتبكًا وأشار إلى النادل طالبًا فنجاني قهوة ثم وجه حديثه بلهجة جادة:

– أتمنى أن تبادرني بما لديك سريعًا، كان يجب أن أغادر منذ دقائق.

أومأ الرجل برأسه:

– لن أعطلك كثيرًا، أعرف قيمة الوقت لديك.

تنهد بعمق واستطرد:

– أحتاج استشارة من عالم آثار متميز، والبعض رشحوك لي، لخبرتك وكفاءتك.

صمت قليلًا وهو يُحدق النظر في عيني مخيون ثم أتبع ببطء وبصوت عميق:

– والأهم من ذلك؛ لنزاهتك.

ضغط حروف الكلمة الأخيرة بشكل يوحي بأهمية ما سيقوله فاعتدل مخيون في جلسته وتساءل باهتمام:

– أي نوع من الاستشارات؟

لم يَبدُ على الرجل أنه سمع تساؤله، واصل التحديق في عيني مخيون ثم قال بجدية وبلهجة حازمة:

– إلى أيِّ حدٍّ أستطيع أن أثق بك دكتور مخيون؟

هزَّ مخيون كتفيه بتوتر وضاقت عيناه، وحرَّك ذراعيه للأمام بشكل لا إراديٍّ:

– إلى أقصى حد، شريطة ألا يكون هناك خرق أو مخالفة لقانون.

– من هذه الناحية اطمئن، عملنا أبعد ما يكون عن ذلك.

– وما عساه يكون؟

– كشف أثريٌّ؟

– ماذا عنه؟

ترك الرجل الفضول يتلاعب بعقل مخيون قليلًا ثم ابتسم وهو يتناول رشفة من قهوته:

– أُعرِّفك بنفسي أولًا، البروفيسور جورج كامبل، أستاذ التاريخ القديم في جامعة فيرجينيا .

على الفور تذكر مخيون أين شاهده من قبل فابتسم بسعادة وهو يعتدل في جلسته وقد تغيرت سحنته ولهجته تمامًا وصاح بلهجة ودودة مهذبة:

– مرحبًا بك بروفيسور، بالطبع أعرفك، أتابع جيدًا ما تنشره من أبحاث ومقالات، ورأيت عدة صور لك في منشورات علمية، أعتذر لعدم التعرف عليك منذ البداية.

– لا عليك، سيكون هناك الكثير من الوقت لنتعارف جيدًا، لكن أود مفاتحتك في أمر مهم –أو إن شئت الدقة– أمر خطير للغاية.

قالها بلهجة تُوحي بأهمية الأمر، ما جعل مخيونًا يسأل بقلق وعيناه تضيقان:

– ما مدى خطورته؟

– إلى الحد الذي يجب أن نغادر فيه هذا المكان الآن. أحتاج إلى مكان هادئ وآمن، تفتح لي فيه أبواب قلبك وأسوار عقلك، وتُنصت إليَّ باهتمام بالغ، بعد أن تطلب لي عشاء مصريًّا ساخنًا.

أَمْعن التفكير قليلًا ثم أردف:

– أقترح كبابًا وكفتة.

تأمله مخيون مدهوشًا بينما تراجع هو في مقعده باسترخاء مواصلًا التحديق في عيني مخيون تاركًا الفضول يَنخَر في عقله بشراسة.

* * *

انتهيا من عشائهما في شقة مخيون فقام بلملمة باقي لفافات الطعام وحملها إلى المطبخ فهتف به كامبل:

– سأتناول الشاي معك، المصريون يفضلونه بعد الطعام مباشرة كما سمعت.

دقائق قليلة وجمعتهما جلسة داخل حجرة المكتب الخاص بمخيون. أشعل سيجارة وقدم واحدة لكامبل، أشعلها هو الآخر ونفث دخانها ببطء شديد واسترخى في مقعده سامحًا للنيكوتين بممارسة وظيفته. استرعى انتباهه إطار صغير على مكتب مخيون يحمل صورة تضم الأخير مع بعض الأشخاص أمام إحدى المقابر الفرعونية. تأمل كامبل الصورة لبعض الوقت، شيء ما لا يدري كُنهه جذبه إليها. لمح مخيون الفضول في عينيه فتبسم قائلًا:

– صورة تجمعني مع عدد من الزملاء وبعض الصحفيين، أمام مقبرة مستكشفة حديثًا في صعيد مصر.

هزَّ كامبل رأسه وأشار إلى فتاة تقف بجوار مخيون:

– من تكون هذه؟

– نور، صحفية وصديقة لي.

– ما الذي دعاك إلى السؤال عنها؟

هزَّ كامبل كتفيه في حيرة:

– لا أدري، شيء ما جعلني أتساءل عنها، لعلها الرهبة المتجلية في العيون وأنتم أمام المقبرة الفرعونية.

مطَّ مخيون شفتيه قبل أن يقول بهدوء ورزانة:

– لا أُحبِّذ استخدام كلمة الفراعنة، أميل إلى تسميتها باسمها الحقيقيِّ، الحضارة المصرية القديمة، وليس الفرعونية.

ابتسم كامبل مداعبًا:

– إذن، أنت ضد النظرية التقليدية، مرحى يا بروفيسور مخيون، يبدو أن بيننا جوانب كثيرة مشتركة.

– الأمر ليس مجرد معارضة النظرية التقليدية أو الحط من شأنها، لكن هي فعلًا واهية مدحوضة، فلفظ فرعون غير موجود في المصرية القديمة، ولم يرِد ذكره على أي أثر أو حتى نص تاريخيٍّ، وحكام مصر القدماء كانوا يحملون لقب ملك. أما فرعون هذه فقد وضعها في التاريخ المصريِّ عالم المصريات البريطانيُّ فلندرز بيتري في أوائل القرن العشرين، وهو كما تعرف

يهوديٌّ صهيونيٌّ، ذو خلفية توْراتية وضع الكلمة خصيصًا من أجل ورودها في العهد القديم، ليثبت أن لها أصلًا تاريخيًّا.

هزَّ كامبل رأسه قائلًا:

– ولذلك قضى أواخر حياته في القدس، ودُفن هناك في مقبرة جبل صهيون.

قالها وأطرق برأسه متفكرًا لثوان قبل أن يرفعها قائلًا:

– التشويه والتحريف الذي طال الحضارة المصرية القديمة، يفوق أيَّ حضارة أخرى تَعرَّض تاريخها للتزييف وإخفاء حقائقه عن قصد، الأمر في رأيي بدأ منذ قيام شامبليون بفك رموز المصرية.

– تعني حادثة زودياك دندرة؟

– أجل، فبعد سرقة اللوحات من مصر ونقلها إلى فرنسا، أحدث الأمر ضجة علمية، وحينها كان الأمر مربكًا لعلماء التاريخ ومخيفًا لرجال الدين، فلوحة دندرة الفلكية أرجعت عمر الحضارة المصرية إلى أكثر من خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد وهو ما يتعارض مع فهم رجال الدين حينها للنصوص المقدسة، الأمر الذي قد يتسبب في ثورة على المعتقدات السائدة، الأمر الذي دعا الكنيسة إلى الادِّعاء بأن لوحة دندرة أداة لبثِّ الإلحاد وإنكار الدين، وانطلقت من الكنيسة حملة شعواء لمهاجمة الحضارة المصرية. وجد شامبليون نفسه في مأزق فاضطر تحت وطأة ضغط الكنيسة إلى التصريح بأن معبد دندرة بُني جزء منه في عهد كليوباترا، وبالتالي يعود بناء المعبد إلى العصر البطلميِّ، مما يجعل الأبراج الفلكية حديثة البناء، وهذا ما يتعارض مع الثوابت والحقائق التاريخية، التي يعلمها شامبليون علم اليقين وإن لم يستطع

التصريح بها علانية، وإن كان البعض من مؤيدي نظرية المؤامرة يرجع وفاة شامبليون المبكرة قبل أن يتجاوز الثانية والأربعين من عمره إلى رغبة البعض في إخفاء هذا السر ومنع شامبليون من إفشائه.

– أجل بروفيسور، ولولا ما قام به بعد ذلك عالم المصريات دي روجي من دحْض لآراء الكنيسة وإثبات لحقائق لوحة دندرة لصارت العلوم الإنسانية في مهبِّ الخطر، ولتأخر ركْب العلم والحضارة، حتى إن الكنيسة نفسها عادت بعد عقود من ذلك تقرُّ بصحة ما ورد في الزودياك.

أومأ كامبل برأسه مؤيدًا كلام مخيون قبل أن يلتقط نفسًا عميقًا قائلًا:

– عامة، لسنا بصدد الولوج في هذه الإشكالية الآن، هناك ما هو أهم وأخطر.

كانت سيجارته قد انتهت فناوله مخيون واحدة أخرى فرفضها كامبل بلطف وهو يلتقط من داخل سترته علبة فضية اللون كبيرة الحجم أخرج منها سيجارين ضخمين ناول أحدهما لمخيون الذي قال مبتسمًا:

– لم أدخن سيجارًا من قبل!!

أجابه كامبل بهدوء وهو يمرر سيجاره أسفل أنفه متشممًا إياه:

– إذن، لتجرب الليلة، يبدو أنها ستكون ليلة حافلة بالمفاجآت.

قالها وهو يلتقط من داخل سترته مقْصلة معدنية صغيرة، وضع مقدمة السيجار داخلها ثم قطعه برفق، قبل أن يتناول علبة ثقاب أخرج منها عودًا أشعل به السيجار والتقط منه عدة أنفاس سريعة متتالية حتى تأكد من تمام اشتعاله.

– القداحات تفسد نكهة السيجار، لا شيء أفضل من عود ثقاب.

قالها وهو يسحب نفسًا عميقًا من السيجار ثم طفق يحدق في الصورة لثوان أخرى قبل أن يلتفت بجدية إلى مخيون الذي قال:

– هاتِ ما عندك بروفيسور.

اكتسى وجه كامبل بالجدية ومد يده داخل سترته وأخرج جرابًا جلديًّا صغيرًا وضعه على سطح المكتب وفضَّه برفق مخرجًا بردية قديمة:

تأملها مخيون قليلًا ثم تساءل بفضول:

– من أين جلبتها؟

– ألقِ نظرة على محتواها أولًا.

قالها وهو يدفع بالبردية برفق ناحية مخيون الذي انحنى مدققًا النظر فيها لثوان قبل أن يرتدَّ إلى الخلف من هول المفاجأة وقد جحظت عيناه.

– يا إلهي، ما هذا بروفيسور؟

اعتدل كامبل في جلسته والتقط نفسًا عميقًا وطوال ساعتين كاملتين راح يروي تفاصيل اكتشاف البروفيسور جاري وولش في الوادي العظيم. وحين فرغ من حديثه تراجع مخيون في مقعده ومزيج من الإثارة والفزع والصدمة يتلاعبون بملامح وجهه، فقال بصوت مرتعش:

– سمعت أن البروفيسور وولش انتحر منذ شهرين، إثر حالة اكتئاب تزامنت مع اختفائه لأكثر من عام.

هزَّ كامبل رأسه بحزن نافيًا:

– لقد قُتل وولش. وجدوه مشنوقًا داخل تلك الكنيسة.

فتح مخيون ذراعيه بتوتر ثم ضمَّ كفيه إلى بعضهما وقربهما من وجهه قائلًا بتردد:

– ما الذي تريده مني بروفيسور؟

أجابه ببساطة:

– أن تكمل معي ما بدأه وولش.

أطرق مخيون برأسه متفكرًا ثم قال مواصلًا إطراقه:

– لا أُخفيك سرًّا، الأمر خطير للغاية، هؤلاء يبدو أنهم متنفذون وبشدة.

– أنا أيضًا خائف مثلك، بل أكثر منك.

صمت قليلًا ثم اقترب بوجهه من مخيون وقال بقوة:

– لكنَّ جزءًا من التاريخ الإنسانيِّ أصبحنا أمناء عليه، فإما أن نملك الجرأة ونخرجه للعالم وإما أن ننزوي نحن وهو في ركن مُهمَل.

زفر بحرارة ثم أردف بحماسة مفرطة:

– هذا الكشف لا يخصُّ مصر وحدها دكتور مخيون، هذا الكشف ملك للعالم كله الآن، أثره على مصر خاصة وعلى العالم عمومًا سيكون مزلزلًا. الحضارة المصرية ستزداد بعدًا وعمقًا وأثرًا في التاريخ، والأمريكتان ستُفَتح لهما صفحة في التاريخ صفحة أبعد غورًا مما توقعنا.

كانت الهواجس والمخاوف تتنازع عقل مخيون، لكن مع كلمات كامبل بدأت الحماسة تتسرب إلى عروقه خاصة وكامبل يقول:

– أسوار كثيرة ستُهدم، وجسور عديدة ستمتد وتربط شعوب العالم، أواصر عديدة ستعضد وتقوى. هذا الكشف سيقول بكل جلاء أن

الحضارات الأمريكية القديمة هي امتداد وإرث للحضارة المصرية، مما سيفتح باب أوسع لإعادة قراءة التاريخ وتحليله من جديد.

هزَّ مخيون رأسه وقال بحرارة وعيناه تشعَّان ببريق حماسيٍّ على الرغم من الخوف الذي غلَّف قلبه واستوطنه.

– أنا معك بروفيسور.

ابتسم كامبل وبدتْ عليه السعادة:

– عملنا سيكون سريًّا للغاية، مهمتنا ستكون فكَّ شفرة الخريطة وفهم رموزها، ولن يمكننا إعلان شيء أو البوح بالسر إلا بعد وصولنا إلى تلك المقبرة، حتى محاولة الاستعانة بالجهات الحكومية لديكم لن تكون متاحة ما لم نصل إلى المقبرة ويكون بحوزتنا دليل قاطع على اكتشافاتنا.

– سنبذل قصارى جهدنا يا بروفيسور.

– أنت خبير في هذا المضمار دكتور مخيون وأثق أنك ستقدر على فك شفرة الخريطة.

* * *

كانت ليلة شتاء قاسية، هطلت الأمطّار بغزارة وانهالت ضرباتها على نافذة حجرة مكتب مخيون الذي انهمك في تلك اللحظة هو وكامبل في تصفُّح مفكرة وولش، فيما أخذ كامبل يقول وهو يحكُّ أسفل ذقنه:

– وولش نقل هنا ملخص ترجمة لبعض النصوص التي قرأها على جدران المقبرة.

أشار بسبابته إلى صفحة بعينها فاعتدل مخيون وهو بعيد ضبط نظارته، بينما أتبع كامبل:

– كانت تلك الرحلة في عهد الملك أمنحوتب الثالث الذي أرسل ثلاث بعثات في توقيت واحد إلى أماكن متفرقة في الأمريكتين، كان أمنحوتب يبحث عن المعرفة واستكشاف العالم من أجل توسيع رقعة الإمبراطورية المصرية. وعند وصول تلك البعثات إلى الأمريكتين استقرت هناك وبدأوا تأسيس حضارة لتكون امتدادًا لحضارتهم الأصلية في مصر. بعد ذلك عاد بعض أفراد البعثات إلى مصر، لإعلان بشرى تلك الكشوفات وجلْب المزيد من السكان إلى الأرض الجديدة.

تناول مخيون ورقة وقلمًا وراح يدوِّن سريعًا بعض النقاط التي قفزت في رأسه، قبل أن يستدير ناحية كامبل قائلًا باهتمام:

– ألغاز كثيرة سيحلُّها هذا الكشف، منها ذلك السر الذي سأطلعك عليه الآن، والذي أثار دهشة علماء المصريات ولم يجدوا له تفسيرًا.

جذبت الكلمات انتباه كامبل فأصغى بكل حواسه ومخيون يردف:

– أثناء فحص بعض المومياوات المصرية، وجدنا أمامنا ما كاد يفقدنا صوابنا، فقد اكتشفنا داخل تلك المومياوات بعضًا من مادتي التبغ والكوكايين وهي مواد لم تكن متوفرة في ذلك التوقيت سوى في الأمريكتين، وكان السؤال الذي طرحناه على أنفسنا ولم نجد له إجابة، كيف وصلت تلك المواد إلى مصر في تلك الحِقبة؟

ابتسم بثقة ونقر على سطح مكتبه:

– الآن كل شيء اتضح.

أومأ كامبل برأسه مضيفًا:

– أنا أيضًا لفت انتباهي أثناء دراستي حضارة سكان أستراليا الأصليين التشابه الهائل الذي يصل إلى درجة المماثلة في العادات والتقاليد والعقائد الدينية عندهم وعند المصريين القدماء، فقد عبَّدوا الشمس مثل المصريين وأسموها في لغتهم القديمة (را)، والشبه واضح بينه وبين اسم الإله المصريِّ القديم (رع).

صمت قليلًا والتقط نفسًا عميقًا ثم أتبع:

– أيضًا تشابُه طرق صيد الطيور بالحِراب والعصا المعقوفة التي ظهرت في نقوش المصريين القدماء وتُسمى (بومي رانج)، الآن صرت متأكدًا أن كل هذا نتيجة تأثر هؤلاء بالبعثات المصرية.

قالها وجذب مفكرة وولش وقلَّب صفحاتها سريعًا وأشار إلى بضعة أسطر:

– وهذا ما يؤكده وولش في مفكرته في إطار حديثه عن مقبرة كاريونج في أستراليا والتي دُفن فيها الملك المصريُّ نفرتي رو إثْر تحطم سفينته على ساحل جوسفورد:

فجأة بدا عليه الاهتمام البالغ وضاقت عيناه بشدة وهو يواصل التحديق في المفكرة ثم صاح بدهشة:

– كيف لم أرَ هذا من قبل؟!

جذبت الكلمات انتباه مخيون فاقترب هو الآخر محدقًا في المفكرة فيما طفق كامبل يقول:

– وولش يتحدث عن بردية قديمة عُثر عليها في منطقة وادي الملوك تعود إلى عهد الملك نخاو تروي كيف وصل قدماء المصريين إلى أستراليا واستيطانهم المنطقة هناك.

فَغَرَ مخيون فاه من الدهشة قائلًا:

– لم أسمع بها من قبل.

– لقد عُثر عليها عام 1911 على يد السير جيمس والتر الذي قضى نحبه في ظروف غامضة وكذا اختفت المقبرة هي الأخرى.

أصغى مخيون بكل حواسه فيما استرخى كامبل في جلسته وأشعل سيجارة وراح في تفكير عميق قبل أن يقول:

– كانت لي دراسة قديمة عن الأساطير المشتركة بين قدماء المصريين وهنود المكسيك والبيرو، واكتشفت أثناءها رسومات ونقوشًا في معابد الإنكا في البيرو تُظهر قوارب مصنوعة من البردي يقودها بحارة يرتدون أردية مصرية، كان الأمر مثيرًا ومحيِّرًا، ولم أستطع حينها تقديم تفسير له.

نَفَثَ دخان سيجارته ثم أتبع:

– حتى الأشكال الهرمية في المكسيك والبيرو التي تشابه أهرامات الجيزة في طريقة بنائها.

اندفع مخيون في حماسة مضيفًا:

– أيضًا علوم الفلك والهندسة التي أعتقد أنها انتقلت بحذافيرها من مصر إلى الأمريكتين.

أومأ كامبل برأسه مؤيدًا رأي مخيون:

– أوافقك ذلك الرأي. لقد بزغت تلك العلوم فجأة في الأمريكتين لدى السكان الأصليين وكأنها انشقَّت من العدم، فلم نجد لها عندهم بدايات أو آثار تطور سابق لها، وهذا يؤكد أنهم تلقوها بالكلية عن طريق رافد آخر، صرنا الآن نعرفه.

قالها وابتسم بسعادة وهو يحكُّ مقدمة أنفه ثم قال:

– حتى يومنا هذا لا يزال هنود البيرو يضعون تمثالًا لإله الشمس في مقدمة قواربهم.

ابتسم مخيون بظفر وأضاف بجذل:

– تمامًا كما كان يفعل قدماء المصريين.

صفَّق كامبل بيديه بغبطة عاتية وقال:

– لقد صدَق وولش في مقالته، هذا الكشف سيحلُّ ألغازًا لطالما حيرت العالم.

تجلَّى الزهو والفخر في عيني مخيون فقال باعتداد:

– ستظل الحضارة المصرية شجرة طيبة مُورقة تؤتي أكلها كل حين، وتُصرُّ على أن تمنحنا كل فترة مفتاح سرٍّ من أسرارها العظيمة، يُتحفنا ويُلهمنا لنواصل النَّهل من ذلك المجد التليد.

أومأ كامبل مضيفًا:

– وهذا دأْب الحضارات العظيمة، بين آونة وأخرى تكشف لنا جانبًا مبهرًا وعظيمًا من تاريخها ممتلئًا ألقًا وإبداعًا وعنفوانًا ما يُحفز ويَشحذ همم الأجيال اللاحقة لاستكمال ذلك النهج.

شبَّك مخيون كفيه أمام وجهه وتساءل:

– ألهذا يُصرُّ البعض على إخفاء هذا الكشف؟

مطَّ كامبل شفتيه وقال بعد تفكير:

– الأمر أعقد من ذلك، وإن كان جزء من كلامك صحيحًا، لكن برأيي هناك أبعاد أخطر تكمن خلف سعيهم الحثيث لطمْس ذلك التاريخ.

بدا الاهتمام على وجه مخيون واعتدل في جلسته وراح يُنصت وكامبل يستطرد وهو يدسُّ سيجارة في فمه:

– خطوط التقسيم الحضاريِّ التي يُروِّج لها البعض الآن، تسعى إلى تمزيق العالم إلى حضارات متنازعة متناحرة، حضارات يفصل بينها جدران قاسية، وعنصرية مَقيتة، مآلها صراع حضاريٌّ مُدمِّر ستطول آثاره العالم طرًّا، لكنَّ كشفًا مثل هذا سيحطم الكثير من الجدران والحواجز وينصِب جسورًا تجسر الهوَّة الواسعة بين شعوب الأرض.

صمت قليلًا وهو يبتلع ريقه ثم أردف بنشوة بالغة:

– هذا الكشف سيشيد جسورًا إنسانية وثقافية وتاريخية، ويسهم في إنشاء عالم تذوب فيه كثيرًا من الفوارق العرقية والحضارية، العالم سيبزغ فيه ثقافة جديدة رسالتها أن أصلنا واحد والمنبع الذي نهلْنا منه واحد، وهذا أحوج ما ينشده عالمنا البائس يا صديقي.

أنهى كلامه وراح يُطالع عيني مخيون اللتين شعتا حماسة وشغفًا هائلين في تلك اللحظة.

* * *

بعد أربعة أشهر

أوقف مخيون السيارة فوق كوبري ضخم وهو يشير إلى يساره فالتفت كامبل متأملًا من أعلى قرية مترامية الأطراف تكاد الخضرة تبتلع دورها المتناثرة.

– الخريطة تقودنا إلى هنا.

قالها مخيون ثم هزَّ رأسه بحيرة مردفًا:

– لكن أين المكان تحديدًا؟ القرية كبيرة جدًّا كما ترى.

أدار كامبل عينيه متأملًا القرية لبعض الوقت قبل أن يلتفت إلى مخيون قائلًا:

– نحتاج إلى رسم خريطة داخلية للقرية، ومضاهاتها بالخريطة لدينا.

– سيلْزَمُنا جولة داخل القرية.

اندفع كامبل في حماسة:

– لنقُمْ بها الآن.

– هيئتك ستثير الشكوك، ليس من المألوف في تلك القرى مشاهدة أجنبيٍّ يتجول فيها.

– ماذا تقترح إذن؟

– سأترك السيارة في مكان منعزل خارج القرية، وابقَ بداخلها حتى أنتهي من جولتي.

توجها بالسيارة عند منطقة هادئة بالقرب من مدخل القرية. ترجَّل مخيون

وانطلق متوغلًا داخل القرية بينما انتحى كامبل بالسيارة جانبًا. مرت عليه ساعة أصابه خلالها الضجر والملل فخرج من السيارة وأخذ يتمشى بالقرب منها متأملًا الخضرة المنبسطة على مدى البصر والتي تخترقها ترعة واسعة نمت على جانبيها الحشائش بكثافة. كان وقت الظهيرة، وشدة القيظ أخْلتْ الحقول من أصحابها. انتهز كامبل الفرصة وأخذ يسير بمَهل بمحاذاة ضفة الترعة. تناهت إلي مسامعه ضحكات صافية تُجلجل وسط تلك الخضرة الصامتة، التفت ناحية الصوت فلمح شابين يجلسان على شاطئ الترعة تحت جميزة ضخمة يصطادان السمك. راقه المنظر فراح يتطلع إليهما عن كثْب، صاح أحدهما وهو يجذب سنارته مخرجًا سمكة كبيرة أخذت تتلوَّى بعنف، أمسك بها الشاب وألقاها على الحشائش بجواره لتتلوى بعض الوقت قبل أن تسكن حركتها بجوار بضع سمكات أخريات. هرع الآخر إلى تقليب الجمر المتوهِّج ثم أمسك بسمكتين كبيرتين رشَّ عليهما بعض البهارات وألقاهما على النار فتصاعدت رائحة شواء أسكرت عقل كامبل. فوجئ بنفسه يتقدم ناحية الشابين وهو يبتسم. تأملاه لثوان بارتياب ثم ضحكا وأشارا إليه بالجلوس. الجو أسفل الجميزة كان باردًا منعشًا، وظلُّ الشجرة أرخى سدوله عليهم واحتواهم برفق. حاول كامبل التقرب من الشابين من خلال نطق بعض الكلمات بالعربية لكنه لم يُفلح، فأثارت محاولته حالة من الفكاهة والمرح، فطفق الشابان يخرجان كل ما بجعبتهما من مصطلحات أجنبية استقياها من خلال مشاهدة الأفلام الأجنبية من دون أن يدركا أن غالبيتها كلمات نابية. استنبط كامبل من خلال حديثهما أن أحدهما يسمى خميسًا والآخر زغلولًا. اقترب السمك من النضج فوثب أحدهم إلى حقل

مجاور واختفى داخله عدة دقائق قبل أن يعود محمَّلًا ببضع ثمرات من الطماطم والفلفل والبصل. فيما قام الآخر بحمل سمكة كبيرة لفَّها داخل ورقة صحيفة ووضعها بجواره. ثوانٍ وحلَّ صمت مُطبق حين شرعوا في تناول الطعام، أقسم كامبل بينه وبين نفسه أنه لم يتذوق من قبل سمكًا ألذَّ من هذا. قبل أن ينتهوا من طعامهم دسَّ أحدهما داخل النار إناء معدنيًّا به سائل أسود لم يتبينه كامبل إلا حين بدأ في الغليان فاشتمَّ رائحة شاي زكية. أنهوا طعامهم فناوله أحدهما كوبًا زجاجيًّا صغيرًا سكب فيه الشاي مرة تلو الأخرى حتى شعر كامبل بالاسترخاء والهدوء يضربان جسده فتمدد بجوار خميس وزغلول تحت ظل الجميزة لبعض الوقت وهو يشعر بسعادة غامرة لم تطأ قلبه من قبل قط. زقزقات العصافير راحت تنساب داخلهم كسيمفونية مفرطة الجمال، كانت تتوقف كل فترة وكأنها تتأكد من انتباههم معها، ثم تعود من جديد بلحن منخفض هادئ راح يخفُت رويدًا رويدًا حتى سقط الثلاثة في إغفاءة لم يدرِ كامبل كم استمرت، لكنه أفاق وحالة من النشاط والحيوية تسري في جسده. تناول كوبًا آخر من الشاي، ثم غادرهما وهما يُشيِّعانه بضحكاتهما وأحدهما يهتف بكلمة جوني. حين عاد مخيون وقصَّ عليه كامبل ما جرى راح في نوبة ضحك وهو ينطلق بالسيارة مغادرًا القرية.

– صدقني بروفيسور لو نقَّبت في جذورك ستجد أن لك أصولًا مصرية.

ضحك قائلًا:

– ربما كان أسلافي ضمن أعضاء تلك البعثة المصرية القديمة.

راقت الدعابة مخيونًا فأطلق ضحكة عالية قبل أن يسأله كامبل باهتمام:

– كيف كانت جولتك؟

– موفقة جدًّا، تعرفت على المكان بشكل جيد للغاية.

صمت كامبل قليلًا وهو يُقلِّب أمرًا في رأسه ثم قال بعد تفكير عميق:

– استرعى انتباهي ذكر وولش كلمات قرأها على جدران المقبرة تصف شيئًا يُسمى نبع الحياة ورجل مُلقَّب بحارس البحر، هل عندك ما يفيد حول هذا؟

مطَّ مخيون شفتيه وهزَّ رأسه نافيًا:

– لا، لم أجد عند قدماء المصريين حتى ما يشابه هذا الأمر.

هزَّ كامبل رأسه وقال بعد صمت طويل:

– لندع كل شيء لوقته، الزمن كفيل بإماطة اللثام عن خباياه.

قالها والتفت يمينه وشرد بصره لبعض الوقت. استدار ناحية مخيون وسأله بهدوء:

– برأيك يا دكتور مخيون ما الذي جعلنا نسلك دربنا هذا ونمضي فيه؟

أجابه بتلقائية:

– الواجب يُحتِّم علينا ذلك، الأمانة التي في أعناقنا يجب أن ترى النور.

تنهَّد كامبل بعمق وقال:

– كان أبي رجلًا ذا خلق منضبطًا، ألزم نفسه بحزمة ضخمة من القيم والمبادئ حاول زرعها فيَّ بكل سبيل، ومع الوقت بدأت أحاكي أبي وأجاريه إرضاء له جاعلًا نُصب عيني قوله: (الشخص المبارك هو من لا يسير في مجالس الأشرار) حتى بعد وفاته لم أحِدْ عن خطه المستقيم كرامة له واحترامًا لذكراه، ومع تقدمي في العمر ونصوجي اكتشفت أني لا أفعل ذلك كرامة

لأبي ولا سلْكًا لطريقه، بل إني أفعلها لأن هذا ما يتوجب على المرء أن يكونه، التزامنا بأخلاقنا ومبادئنا ليس ترفًا ولا تكرمًا، بل هو ما تُحتِّمه إنسانيتنا وفطرتنا السوية التي هي أثر النفخة الإلهية.

ضاقت عيناه وأردف بحزم:

– القيم والمبادئ هي الحد الفاصل بين الظلام والنور، بين الإنسانية ودَرَك الحيوانية، الرجال وحدهم هم من يقدرون على إلزام أنفسهم بقيمهم ومثلهم العليا، وهذا أمر عظيم جليل.

– المبادئ كُلْفتها عظيمة بروفيسور كامبل:

– أجل، وهذا ما يجعل الرجال عظماء، سلْكهم الطريق على الرغم من علمهم حفوفه بالأخطار، قبولهم دفع الثمن برضا نفس على الرغم من إدراكهم فداحته.

– في النهاية قد لا نصل إلى مرادنا، قد نسقط قبل ذلك.

– المهم أن نسقط على الطريق، أن نسقط ولا زلنا متشبثين بأخلاقنا ومبادئنا، حينها نكون قد فزنا، وأي فوز أن يقضي الرجل نحبه في سبيل ما يعتقد ويؤمن به.

ابتسم مخيون بإعجاب قائلًا:

– كلماتك تنزل عليَّ بردًا وسلامًا بروفيسور، كلما قصرت همَّتي أو استولى عليَّ الخوف، أجد في كلماتك السلوان والعزيمة، فأستمر في طريقي على الرغم من كل شيء.

التقط كامبل نفسًا عميقًا وقال:

– الفضل في ذلك يعود إلى سيرة ذلك العربيِّ النبيل، الذي ما إن اطَّلعت على بعض أحداث حياته حتى وجدت نفسي ذاهلًا مشدوهًا، فانكببت على دراسة سيرته وحياته لسنوات عديدة.

– أي نبيل هذا؟

– علي بن أبي طالب.

بدا الاندهاش على وجه مخيون وكامبل يتبع:

– كان جزءًا من دراستي وأبحاثي، أدهشتني سيرته ومسيرته، أذهلني خلقه ومبادئه، حتى في أقسى ظروف صراعه مع خصومه، مبادئه ثابتة راسخة كالجبال، يغدرون ويُوفي، يظلمون ويعدِل، يُداهنون ويصدُق، يلتفون من أجل غايتهم الدنيا، ويظل على نهجه الصافي من أجل غايته السامية، لم يكن التزامه بمبادئه وقيمه قصورًا منه أو ضعفًا، ولم يكن اجتنابه المداهنة والمكر والالتفاف لعجز منه عن ذلك أو قلة حيلة، فقد كان يفوق خصومه عقلًا ورأيًا وإدراكًا ولو شاء لفعل ولمكر بهم مكرًا يشيب لهوْله الوليد، لكنَّ عليًّا كان مقيدًا بأخلاقه ومبادئه مكبَّلًا بفروسيته وشهامته، فحين يتدنى خصومه في استعمال أخبث الأسلحة تأبى أخلاقه ومبادئه وروحه السامية أن تتدنى إلى هذا المستنقع الآسِن، قد يقول البعض أن خصومه نجحوا في سياستهم ونالوا مرادهم، بينما هو قضى نحبه وما زالت مبادئه تحوط عنقه وتغشى قلبه، وهذا وربي أعظم من كل نجاحات الدنيا أن تغادرها فارسًا عزيزًا أبيًّا لم تتلوث ولم تنلْ من قلبك الشرور، أن تغادرها وقد دفعت حياتك ثمنًا لكل ما تؤمن به وتعتقد، وهذا ما أرجوه يا دكتور مخيون، إن لم يُكتب لي النجاح في مهمتي فأقلُّه أن أمضي إلى قبري وأنا على هذا الطريق.

قالها وحلَّ صمت مهيب وعيون الرجلين تحاولان اختراق الأفق واستشراف المجهول القادم.

وصلا القاهرة قبل غروب الشمس. توقف مخيون بالسيارة أسفل البناية التي يَقْطن فيها، ترك كامبل يهبط بينما انطلق هو بالسيارة لبعض شأنه من دون أن يلْحظ السيارة السوداء قُرب البناية حيث جلست بداخلها سيدة تختفي خلف الزجاج المُعْتم راحت ترمق كامبل بنظرات وحشية.

لم يطلْ غياب مخيون أكثر من ساعة ونصف. لكن لدى عودته وحين اقترب من الشقة لاحظ بابها المنفرج بعض الشيء، شعر بالتوتر وساوره الشك فاندفع بلهفة ودفع الباب بتوجس ودلف بخطوات حذرة وهو يصيح بقلق:

- بروفيسور كامبل هل أنت هنا؟

لم يجد جوابًا. زادت شكوكه أكثر وبدأ العرق يتصبب منه، وهو يتقدم متجاوزًا الردهة، حانت منه التفاتة فلمح ضوء غرفة المكتب مُضاء. تقدم ليجد الباب شبه مفتوح فدفعه بحذر وهو يواصل نداءه:

- بروفيسور.

فجأة تجمدت الدماء في عروقه وتسمَّر مكانه. كان البروفيسور مُلقًى على أرضية الغرفة والدماء تنزف من عنقه بغزارة. هاله المنظر فاندفع سريعًا صارخًا بفزع اجتاح كل كيانه:

- بروفيسور.

كان الرجل في لحظاته الأخيرة، بالكاد رفع عينيه وتأمل مخيونًا برعب هائل، فلم يتمالك الأخير نفسه فانهار باكيًا وهو يجثو على ركبتيه بجوار كامبل الذي نطق بالكاد:

– الصورة على مكتبك.

لم يفهم مخيون بداية، لكن مع إشارة كامبل إلى الإطار على المكتب وَثَبَ مخيون محضرًا إياها وكامبل يجاهد من أجل التحدث:

– لقد كشفوا أمرنا، وأخذوا الخارطة.

– من يكونون؟

رفع كامبل سبابته الملوثة بالدماء وأشار إلى الصورة في يد مخيون واضعًا بصمة بدمائه على رأس أحدهم.

فصرخ مخيون بفزع:

– مستحيل، هل أنت متأكد؟

لم يُجبْه كامبل، خبَّ النور في عينيه وسكن جسده إلى الأبد معلنًا وصول رحلته إلى المحطة الأخيرة.

ارتمى مخيون عليه وراح في نوبة بكاء هيستيريٍّ متأملًا الجسد الغارق في بركة من الدماء، والذي كان منذ ساعات ينبض حياة ونشاطًا ويشعُّ أملًا وحماسة.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

قادهما الضابط إلى حجرة في نهاية ممر طويل وهو يقول بصرامة:

– معاكم عشر دقائق، أنا لولا التوصية اللي معاكم من سيادة العميد رشاد مكنش ممكن أسمح بكدا أبدًا.

هتف طارق بلهفة:

– خميس قلقان وخايف جدًّا، ولازم نطمنه، لو اتكلم بكرا في النيابة وقال كل حاجة هنقدر نمسك أدلة قوية جدًّا في قضية الدكتور مخيون الله يرحمه.

أومأ الضابط برأسه وهو يفتح باب الغرفة فدخل الاثنان ليجدا خميسًا في حالة مزرية وهو جالس منزويًا في أحد أركان الحجرة. ما إن شاهدهما حتى اندفع ناحية طارق بلهفة وكأنه يحتمي به:

– الحقني يا أستاذ طارق، روحت في داهية.

طمأنه طارق وهو يربِت على كتفيه:

– ولا روحت في داهية ولا حاجة، الوضع في صالحنا.

رمق خميس نور بارتياب واقشعر بدنه جرَّاء نظرتها الجامدة فقال طارق مطمئنًا:

– الآنسة نور، صحفية وصديقة.

عادت إليه مخاوفه مجددًا فراح يقول وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

– إزاي في صالحنا وفيه بكرا نيابة وتحقيقات. وبعدين مين دوول اللي كانوا بيجروا ورانا في المحطة؟

التمعت عين نور وظلَّت على صمتها بينما أمسك طارق بكتفي خميس وقال بثقة:

– أعتقد أنهم تبع نفس الجهة اللي قتلت مخيون، والحمد لله إنك هربت منهم.

– ووقعت في إيد الحكومة.

– إحنا كنا متفقين إنك هتسلم نفسك، الموضوع مفرقش كتير، المهم دلوقتي بكرا في النيابة تقول كل حاجة، كل اللي شفته من لحظة سرقة المقبرة لحد دلوقتي، والبرديات تسلمها للنيابة.

تردد خميس وهو يقول:

– البرديات أنا شايلها في مكان أمان.

– يبقى تقولي مكانها وأروح أجيبها حالًا أنا ونور.

همَّ بالتحدث وإعلام طارق بمكان البرديات لولا حدجته نور بنظرة نارية غاضبة فارتجف لها جسده، وشعر بثمة أمر غريب تُخفيه نور، فهزَّ رأسه مليًّا ثم قال:

– بكرا في النيابة أقولهم على مكانها، ويروحوا معايا نجيبها.

قلَّبها طارق سريعًا في رأسه وقال بارتياح:

– كدا أفضل، على الأقل هتكون فيه قوة بتأمنك، وأنا من الصبح بدري هكون في انتظارك في النيابة ومعايا محامي.

في تلك اللحظة فتح الضابط باب الحجرة طالبًا منهما المغادرة، فتوجه طارق خارجًا مُشيِّعًا خميسًا بنظرات مشجعة مطمئنة:

- كل شيء تمام اطمن.

مدت نور يدها مصافحة خميسًا وتحدثت للمرة الأولى:

- خلي بالك من نفسك يا خميس.

قالتها بنبرة بدتْ غريبة لخميس وهي تضغط على يده بقوة وعيناها تومضان ببريق عجيب، فشعر خميس بورقة تلتصق براحة يده. قبض كفَّه وأخفي الورقة بينما طارق منشغل بالحديث مع الضابط. انتهى اللقاء وعاد إلى محبسه فانتحى بنفسه جانبًا وأخرج الورقة من بين طيَّات ثيابه وفضَّها بلهفة وقرأها بعينيه سريعًا فانتابته قشعريرة هائلة وشعر بالفزع يجتاح كيانه. لقد اكتشف أن الداهية التي حلَّت به أعظم وأخطر مما كان يظن ويتخيل. أعاد القراءة المرة تلو الأخرى ورعبه يتزايد وخوفه يتعاظم. مزَّق الورقة قِطعًا صغيرة ثم ارتكن بظهره إلى الحائط خلفه لازمًا الصمت تاركًا الهواجس تتقاذفه كريشة في مهب الريح.

* * *

بعد حوالي ساعة تناسى همومه ومخاوفه واندمج مع رفقة الزنزانة في حديث عبثيٍّ طويل، فضجت الزنزانة بالضحك وخميس لا يكفُّ عن رواية مغامراته وجولاته وهو جالس متوسطًا رفقته ذاكرًا لهم سبب تسمية المارشال .

هتف أحدهم بمرح:

– ده أنت حكاية يا مارشال خميس.

رد عليه خميس مجاملًا:

– الله يكرمك يا واد يا حشيشة يا قتال القتلة، وإن شاء الله تتعدم قريب.

صاح الرجل بانزعاج:

– أعوذ بالله منك يا جدع ليه الفال ده.

أجابه خميس بجدية:

– عشان تستريح من الدنيا وبرضه تسيب فرصة للناشئين الجدد ياخدوا فرصتهم في سكة الإجرام.

تصاعدت الضحكات مجددًا بينما أصدر باب الزنزانة صريره معلنًا وصول وافد جديد. لم يأبه أحدهم بالقادم، فهذه عادة الليل لا يكفُّ الشارع عن إرسال دفعات من المشتبه فيهم أو المتهمين في قضايا. تفحَّص الرجل المكان حوله بدقة محدقًا النظر في الوجوه حتى استقرت عيناه على خميس فجلس غير بعيد عنه. لم تمضِ سويعة إلا وهدأت الأصوات وسكنت الأجساد وفرض النوم سلطانه على المكان. اقترب الرجل ببطء وحذر من خميس وقال بصوت خفيض:

– خميس؟!

ارتعدت فرائصه وتساءل بهلع:

– أنت مين؟

لم يَرد الرجل. أخرج من جيبه هاتفًا محمولًا وضعه في يد خميس وقال بصرامة:

– ادخل دورة المية، وحط التليفون على ودانك، واسمع اللي هيتقالك كويس.

أمسك بالهاتف وتساءل بخوف:

– هكلم مين؟

– معرفش، انجز المكالمة شغالة والناس مستنياك.

أخفى الهاتف في طيات ثيابه ودلف سريعًا إلى دورة المياه، وضع الهاتف على أذنه بيد مرتجفة وقال بصوت مرتعش:

– أيوه، أنا خميس.

أتاه صوت أُنثويٌّ صارم:

– اسمع الكلام كويس وركز معايا، لسانك لو نطق بكلمة في النيابة عن البرديات ولا غيرها حياة مراتك هتكون التمن، فبلاش تتغابي.

جاءه صوت هيام هلوعًا مذعورًا:

– الحقني يا خميس، خطفوني يا خميس.

جحظت عيناه وأصابته رجفة هائلة وكاد أن يتهالك أرضًا فاستند على الحائط خلفه وهمس بانهيار ودموعه تتساقط:

– هيام.

جاءه الصوت الأنثويُّ ثانية وهو يقول بحزم غاضب:

– لو سمعت الكلام محدش هيتأذي، تدينا البرديات تاخد مراتك وكل واحد يروح في حاله.

أصغى بكل حواسه والمرأة تُكمل بلهجة آمرة:

- الرجل اللي معاك هيديك حباية، تاخدها حالًا والباقي علينا.

صمتت قليلًا ثم قالت:

- خليك ذكي يا خميس وبلاش تهور، محدش هينفعك لا طارق ولا غيره، حياة مراتك تعتمد عليك.

قالتها وأنهت المكالمة فيما ظل هو مكانه غير مصدق لما يجري. راح في نوبة بكاء حارة صامتة امتدت لأكثر من ثلاث دقائق قبل أن يتمالك نفسه ويغسل وجهه بالماء ويعود إلى مكانه. ناول الرجل الهاتف فوضع كبسولة دواء في يده:

- خدها حالًا.

- دي حباية إيه؟

- دي الحباية اللي هتخرجك من هنا.

* * *

حين أفاق خميس في الصباح وجد نفسه راقدًا على سرير داخل إحدى المستشفيات. كان يشعر بدوار خفيف وصداع في رأسه، حاول التحرك فلم يقدر، معصمه كان مُثبتًا إلى السرير بأصفاد حديدية. بالقرب منه كان يجلس جنديٌّ حراسة راح يتأمله وهو يفيق:

- أنت فُقت يا جدع أنت؟

قبل أن يجيب خميس دلف أحد الأطباء إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه وتوجه ناحية خميس، بينما أفسح الجنديُّ الطريق للطبيب، الذي استدار بغتة

ناحية الجنديِّ واستلَّ من داخل ملابسه آلة حادة هوى بها على مؤخرة عنق الجندي فخرَّ مغشيًّا عليه، وسط ذهول خميس الذي فوجئ بالطبيب المزيف يندفع ناحيته ويُخرج من جيبه مفتاحًا صغيرًا فكَّ بها أصفاده وأنهضه سريعًا وهو يخلع معطف الطبيب مناولًا إياه:

- البس ده واخرج من هنا حالًا.

ارتدى خميس المعطف الأبيض والرجل يناوله هاتفًا محمولًا في يده:

- وخلي ده معاك المدام هتكلمك عليه.

* * *

غادر المشفى سريعًا وابتعد عنها بقدر كاف. خلع المعطف وألقاه جانبًا ثم أخرج الهاتف وطلب رقم محروس الذي بُهِتَ وذُهِل:

- هربت؟ إزاي؟

- مش وقته، هيام معاهم ولازم نتصرف بسرعة.

- عارف عارف، لازم نتقابل حالًا.

- أقابلك فين؟

- احنا سبنا بولاق بعد خطف هيام وروحنا عزبة الهجانة.

استمع خميس بتركيز ومحروس يشرح له كيفية الوصول إلى العزبة. بعد ساعة كان خميس يقف عند أطراف العزبة بجوار مقهى وصفه له محروس. سأل عامل المقهى عن طايع السكيان فأشار إلى شاب صعيديٍّ أسمر يجلس بمفرده، فاقترب منه خميس وقال بتوتر:

- أنا خميس.

تأمله الشاب لثوانٍ قبل أن ينهض قائلًا:

- تعالَ ورايا.

لحظات وكان الشاب ينطلق بدراجته النارية ومن خلفه خميس مخترقًا شوارع العزبة. وصلا إلى بناية مكونة من ثلاثة أدوار صعد به الطابق الثاني وطرق الباب ففتح محروس، الذي ما إن أبصر خميسًا حتى احتضنه فسالت دموع الأخير رغمًا عنه. أخذ محروس يحاول التهدئة من روعه قبل أن يشير إلى طايع قائلًا:

- خليك قريب مننا ولو لمحت أي حد غريب بلغنا فورًا.

في تلك اللحظة ظهر زغلول خارجًا من دورة المياه فانهار لدى رؤية خميس وطفق يروي ما جرى.

- بعد اللي حصل في المحطة رجعت على بولاق وقبل ما أوصل العمارة لمحت من بعيد رجلين بيشدوا هيام جوا عربية وهي بتصرخ، على ما وصلت كانت العربية اتحركت بسرعة.

أجهش في البكاء وتعالى نحيبه بينما التمعت الدموع مجددًا في عيني خميس الذي ربَت على كتف زغلول قائلًا:

- هترجع إن شاء الله، هقلب الدنيا وأرجعها.

قطع كلامه رنين الهاتف فالتقطه بسرعة وأجاب بصوت مضطرب:

- أيوه.

جاءه صوت سوزان حادًّا للغاية:

– أدامك أربعة وعشرين ساعة والبرديات تكون معانا، وإلا بعد المدة دي بدقيقة هتوصلك جثة مراتك.

انفعل قائلًا بغضب:

– لو حد هوِّب ناحية هيام.

قاطعته بصرامة:

– وفَّر كلامك، ولو عايز مراتك ترجع بلاش تهور وتنفذ الكلام بالضبط.

قالتها وأنهت المكالمة سريعًا. تبادل الثلاثة نظرات حيرة قاتلة وزغلول يتساءل موجهًا حديثه إلى محروس:

– هنعمل إيه يا أبو العريف. فين أفكارك؟

أجابه محروس متوترًا:

– لحد هنا والموضوع بقى كبير، روح هيام في أيديهم أنا رأيي نديهم البرديات وناخد هيام

تردد خميس قائلًا:

– أنا خايف اديهم البرديات يغدروا بنا وميرجعوش هيام.

– مفيش حل تاني أدامنا.

قالها محروس بينما اجتاحتهم موجة هلع عاتية راحت تعصف بهم، فهبَّ خميس واقفًا متوجهًا صوب الباب والشرود بادٍ على ملامحه.

– رايح فين؟

تساءل زغلول مدهوشًا فأجابه من دون أن يلتفت ناحيته:

- مخنوق، هشم شوية هوا وأرجع.

- هوا إيه؟ لو حد شافك هتبقى مشكلة.

لم يسمع باقي جملة محروس، اندفع مغادرًا البناية، لحظات وغرق في زحام الناس. حارت أفكاره وتاهت خطواته ضلَّ الطريق، وشعر بالظلام يحتويه ويجتذبه فهامَ على وجهه كالمجنون لا يكاد يعي شيئًا. لم يشعر بنفسه إلا وهو جالس في جامع الحسين لا يعرف كيف وصله. لم يدرِ كم ظل هناك، دقائق أو ربما ساعات، فقد عقله القدرة على استيعاب الزمن وتحديده، أنفاسه متمازجة مع خفقات قلبه، أناته تعانق عبراته، غاص في آلامه وبلغت محنته ذروتها، حلمه الصغير الذي شيَّد لبناته من عميق روحه ونفيس جسده، صار في مهب الريح، يوشك أن يخِرَّ هدًّا. ارتكن إلى أحد أعمدة المسجد وضمَّ ركبتيه إلى صدره وأسند رأسه عليهما وأخذت دموعه تنساب بغزارة ونحيبه وأنينه يتصاعدان، وجسده ينتفض على إثره. من قبلها قاسى الوحدة في طفولته وصباه، قاسى فقدان الشوق، وانعدام الأمان، حتى جاءت هي وأقبلت. تذكَّر بوجْد الأيام الخوالي، راحت هيام تتقافز في قلبه وعقله، ضحكاتها، همساتها، لمساتها، عتابها، أحزانها. مسكينة هي، صِنو روحه ووحيدة فؤاده، شاركته أحلامه وشاطرته آماله، واقتسمت معه كأس الفقر والضنك حتى الثمالة، سرُّه وسنده، مدده ووتده، أظلهما أديم السماء وافترشا أديم الأرض. تنهَّد بأسى بالغ وأغمض عينيه قبل أن يشعر بيد حانية تربِت على كتفه فرفع رأسه ليجد الشيخ خضرًا جالسًا بجواره يسأله بصوته العميق:

- مالك يا خميس؟

تأمله بلهفة وقال:

– شيخ خضر، ياه ده أنا كنت خلاص قربت أفكرك هلاوس زي ما هيام بتقول.

ابتسم الرجل بحنان ومسح على رأسه:

– اللي زيك يا طيب ميعرفش الهلاوس، القلب الأبيض لا يقربه الشيطان.

تساقطت دموع خميس:

– قلب أبيض بس تايه يا مولانا.

– التايه مسيره يصل مراده ويعرف طريقه.

هزَّ رأسه بشرود وقال بعينين زائغتين:

– أعمى يا مولانا مش عارف أفرق بين الصح والغلط الاتنين اختلطوا عليا.

– من يرى بعينيه قد يضل، ومن يبصر بقلبه يهتدي.

قالها الشيخ فتهدَّج صوت خميس:

– حتى قلبي أعمى يا مولانا.

– قلبك طاهر، ونقي والدليل دموعك وخوفك. من يبكي ويخاف فقلبه حي، الويل لصاحب القلب الميت.

وضع خميس يده على رأسه وقال بألم بالغ:

– لقيت نفسي في طريق مش طريقي وحرب مش حربي وناس متعلقة في رقبتي وأنا مسكين وسط ديابة، ليه ده كله بيجرى ليا، ذنبي إيه عشان أتبهدل كدا.

– لا الأمر أمرك ولا التدبير تدبيرك ولا الشؤون التي تجري بتقديرك، لك خالق رازق ما شاء يفعل بك، أحاط بك علمه قبل تصويرك.

– ونعم بالله، لكن إيه العمل يا مولانا؟

أجابه الشيخ بثقة:

– استعِنْ بقاضي الأوطار وعالم الأسرار، قُلْ مدد يا رب.

– خايف يا مولانا.

– ردِّدْ خلفي يا خميس بسم الله بابنا تبارك حيطاننا يسن سقفنا كهيعص كفايتنا حم عسق حمايتنا مما نخاف.

ردَّدها خلفه ودموعه تنساب كالشلال لكنه شعر بطمأنينة تحوط قلبه وبوداعة تسري في عروقه، وبهدوء يعتريه. شعُر بثقل في جفنيه فأغمضهما وعاود وضع رأسه على ركبتيه والشيخ يقول بحنان:

– متقلقش، هيام بخير وهترجع لك قريب.

– أنت عرفت منين موضوع هيام؟

رفع رأسه متسائلًا فأخذته دهشة عارمة. كان المكان حوله خاليًا تمامًا. انتفض واقفًا كالملدوغ متلفتًا يمنة ويسرة باحثًا عن الشيخ خضر فلم يعثر على أحد. أفاق من دهشته على صوت الأذان توضأ وصلى وغادر الجامع وقد حسم أمره. أمسك بالهاتف وطلب رقم أحدهم:

– أيوه، أنا خميس، لازم نتقابل ضروري.

* * *

قُرب الغروب انطلق طايع بدراجته النارية وخميس خلفه مخترقًا عزبة الهجانة حتى وصل أطرافها قرب منطقة نائية. من بعيد لمح خميس سيارة متوقفة أشار إلى طايع:

– نزلني عند العربية واستنى أنت بعيد شوية.

– أجي معاك أأمنك.

– الأستاذ طارق معانا متقلقش.

قالها وتوجه بخطوات واسعة ناحية طارق الذي هبط من السيارة وصافح خميسًا الذي طفق يروي لطارق كل ما حدث فأطرق الأخير مليًّا والذعر يملأ وجهه قبل أن يقول بحزن بالغ:

– حاسس بك ومقدر موقفك لكن لازم نحسب الموضوع بالعقل ونفكر كويس. مفيش ضمانة إنهم هيرجعوا مراتك لو خدوا البرديات.

تأمله خميس وراح يُصغي بانتباه وطارق يستطرد:

– مخيون الله يرحمه غلط لما رفض يبلغ الشرطة عشان تتدخل وتحميه، أنت برضه متقعش في نفس الغلطة، سلِّم نفسك وسلم البرديات وسيب الشرطة تتعامل معاهم.

هزَّ خميس رأسه رافضًا الفكرة:

– لو شموا خبر إني عملت كدا هيقتلوا هيام، مقدرش أخاطر بحياتها.

توتر طارق وفرك كفيه قائلًا:

– وبرضه منقدرش نخاطر بالبرديات أنت مش عارف قيمتها وأهميتها إزاي.

رمَقه خميس باستغراب وقال بدهشة:

- عايزني أخاطر بهيام عشان شوية ورق.

ازدرد طارق لعابه بتوتر:

- لازم تعرف أن البرديات دي لها قيمة تاريخية وعلمية لا تقدر بتمن، صدقني يا خميس حتى أرواحنا مقابلها ولا حاجة!

فوجئ خميس بمقالته فانفعل وصاح بحدَّة:

- ولا يفرق معايا الكلام ده، بالنسبة ليا ده شوية ورق.

احمرَّ وجه طارق وصاح بغضب:

- ده مش مجرد ورق عادي ده سر من أعظم وأهم أسرار الفراعنة.

- ولا يفرق معايا، أنا هسلمهم البرديات وأخد مراتي، احنا ناس غلابة ملناش ذنب في اللي بيحصل ده، أنا أحلامي وطموحي عمرها ما عدت حدود بلدنا وفي يوم وليلة ألاقي نفسي في حرب ودم وخطف وسجن ليه ده كله.

صمت قليلًا ثم استطرد بلهجة حزينة:

- دي مش حربي ولا ده مكاني.

أخذ طارق نفسًا عميقًا وهو يحاول السيطرة على أعصابه التي بدأت في التفلُّت منه وقال بمرارة:

- طلبت مقابلتي ليه يا خميس؟

بدا الأسف على وجه خميس وقال:

– عشان أقولك آسف، كان نفسي فعلًا أساعدك وأسلمك البرديات لكن غصب عني ولازم تفهم وتقدر موقفي.

– ده آخر كلام عندك يا خميس؟

– أيوه.

لاذا بالصمت لبعض الوقت وهما يتأملان بعضهما قبل أن يمد طارق يده بالمصافحة:

– عامة أتمنى لك التوفيق يا خميس.

مد خميس يده بتلقائية فانقضَّ عليه طارق بشراسة ولوَّى ذراعه خلف ظهره ثم ألقاه أرضًا وهو يصرخ بوحشية وقد فقد السيطرة على نفسه تمامًا:

– البرديات فين انطق.

أخذت المفاجأة خميسًا وصدمه الأمر. حاول التملُّص من يد طارق لكن الأخير أحكم قبضته على ذراع خميس فصرخ بغضب:

– مش هقولك، حياة مراتي في الورق ده.

ازدادت شراسة طارق:

– مش هسيبك يا خميس غير لما تقول. أنت مجنون ومتخلف، عايز تضحي بجزء من تاريخنا عشان حياة مراتك.

لمح خميس حجرًا أمامه فاستجمع قواه ثم دفع طارق بظهره بقوة فأفلته رغمًا عنه فالتقط الحجر بيسراه وهوى به على وجه طارق الذي تراجع صارخًا والدماء تنفجر من وجهه. كانت الضربة شديدة أفقدته توازنه فسقط على ركبتيه متأوِّهًا، فيما أخذ خميس يرمقه بحزن وجسده يرتجف:

– أنت اللي أجبرتني على كدا.

وضع طارق يده على وجهه محاولًا إيقاف نزيف الدماء وهو يصيح بغضب:

– أنت غبي. لو أخدوا منك البرديات لازم تعرف إن جزء كبير من تاريخنا هيختفي للأبد، بدون البرديات مش هنعرف عنه أي حاجة.

أجابه خميس بصراخ هادر وجسده يرتجف:

– أنت يهمك التاريخ والورق، وأنا يهمني مراتي، كل واحد فينا بيدور على اللي يهمه.

تأمله طارق بأسى وهو يمسح الدماء عن وجهه:

– للأسف حظ البلد، وحظ البرديات إن مصيرها أصبح في إيد واحد زيك، جاهل وأمي، لو كنت متعلم وفاهم كنت هتعرف قيمة كلامي وتقدر أهمية البرديات.

أجابه خميس بحزم وثقة:

– الحمد لله إني مش متعلم ولا فاهم، عشان ما أخترش البرديات وأضحي بمراتي. بالنسبة ليا لو التاريخ كله اختفى والدنيا انتهت وهيام معايا مش هكون خسران حاجة، لكن لو كسبت التاريخ وخسرت هيام هكون خسرت كل حاجة.

قالها وألقى الحجر من يده وانصرف مغادرًا المكان تاركًا طارق في حسرته وآلامه.

* * *

لم يكف خميس عن التحرك بعصبية ظل يذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا بينما زغلول ومحروس يرمقانه بتوتر هائل.

- الولية الحربايةقفلت الموبايل ليه؟

لم يرد أحد اكتفوا بتبادل نظرات الحيرة وخميس يتبع:

- يكونوا عملوا حاجة في هيام؟

حلَّ الوجوم على وجوههم فيما حاول محروس طمأنتهما:

- هتتصل متقلقش.

مرت ساعة كاد القلق يفتك بهم خلالها وجفَّت خلالها الدماء من عروقهم من فرط التوتر والخوف لكن رنين الهاتف أعاد نبض الحياة إليهم مجددًا. اندفع خميس ناحيته والتقطه بلهفة:

- ألو.

جاءه صوت سوزان الحادُّ:

- ناوي على إيه؟

أجابها باستسلام تام:

- أنا موافق، هسلمكم البرديات.

بدا صوتها مبتهجًا وهي تقول:

- كويس جدًّا، كدا تبقى عاقل و..

قاطعها قائلًا بحزم:

- بس ليا شروط.

كانت سوزان تجري المكالمة من داخل مكتب الدكتور الذي كان يتابع الحوار بلهفة وهو قابع في ظلمته فتساءلت سوزان مندهشة:

– شروط إيه؟

أجابها بثقة:

– أول شرط هيام ترجع صاغ سليم وتاني شرط زي ما لبستوني في القضية تطلعوني منها براءة.

أجابته بتلقائية:

– اعتبر ده كله حصل.

– وعايز مليون جنيه.

انفعلت سوزان وصاحت باستهجان بالغ:

– مليون إيه؟ أنت مجنون؟!

زفر خميس بحرارة وهو يحاول استجماع قواه والتحكم في أعصابه:

– أنا أبقى مجنون لو مطلبتش كدا، عشان الكل يطلع متراضي، خدوا البرديات وادوني هيام والفلوس.

ندت من الدكتور ضحكة خافتة وأشار بيده إلى سوزان ما يعني موافقته، فراحت تُحملق في الظلام غير مصدقة موافقته بهذه السهولة.

– موافقة يا خميس.

تجلَّى الارتياح في نبرة صوته:

– جهزي الفلوس وبكرا الساعة عشرة الصبح هبلغك بالمكان.

– ماشي يا مارشال خميس.

قالتها بتهكُّم واضح ثم أتبعت بصرامة:

– لكن بحذرك أي تلاعب أو محاولة لف ودوران..

قاطعها بثقة وجدية:

– مفيش حاجة من الكلام ده، احنا عايزين نخلص ونفضها سيرة وكل واحد يروح في حاله.

أنهت المكالمة والتفتت إلى الدكتور باستغراب:

– غريبة جدًّا موافقتك على دفع المليون جنيه، مع إن موقفنا أقوى.

غمزت بعينيها بخبث واستطردت:

– ولا ناوي تغير الاتفاق عند التسليم.

قاطعها بحزم:

– لا لا خلينا نخلص، الموضوع زاد عن حده عايزين ننهي العملية بسرعة ونقفل الصفحة دي في أسرع وقت.

صمتت قليلًا ثم مطَّت شفتيها قائلة بقلق:

– الواد ده مش ممكن يتغابى ويدخل الشرطة في الموضوع.

أجابها بثقة:

– لا خالص، ده عيل ساذج دماغه مش هتروح لكدا، لكن برضه احنا عاملين حسابنا وهنأمن مكان المقابلة ورجالتنا هيكونوا في كل مكان، خدي كامل حذرك المرة دي.

* * *

توقف خميس قرب ميدان التحرير وراح يتلفت حوله في عصبية بالغة وهو يحمل في يده كيسًا بلاستيكيًّا أسود. كان قد أجرى مكالمة هاتفية مع سوزان منذ ساعة طالبًا منها مقابلته في شارع جانبيٍّ قرب ميدان التحرير. اقترب من الشارع بحذر وهو يُلقي نظرة خاطفة على زغلول ومحروس اللذين جلسا على مقهى قريب منه. تمشَّى بضع خطوات ثم توقف بجانب الرصيف وقد انتابه شعور هائل بالخوف. على بعد أمتار منه وفي بناية مقابلة وقفت نور خلف نافذة مُعتمة تتابعه بتركيز وهي تتحدث في الهاتف:

– أيوه يا دكتور، خميس أدامي، والشارع كله متأمن رجالتنا منتشرين في المكان من نص ساعة.

صمتت قليلًا وهي تُمعن النظر:

– سوزان وصلت، العملية هتم حالًا.

توقفت سوزان بسيارة جيب سوداء بجوار خميس. انزاح الزجاج كاشفًا عن وجهها الصارم:

– فين البرديات؟

ابتلع ريقه وسألها بتوتر:

– مراتي فين الأول؟

انزاح زجاج المقعد الخلفيِّ لتظهر هيام جالسة وسط رجلين وأحدهما يصوب مسدسًا إليها.

تأملها خميس بحزن جارف بينما تساقطت دموعها وهمست بحزن:

– خميس.

- متخافيش يا هيام، كل حاجة هتخلص دلوقتي.

رفعت سوزان صوتها بحدَّة:

- خلص مفيش وقت، فين البرديات؟

- فين الفلوس؟

التقطت حقيبة جلدية من جوارها وفتحتها فالتمعت النقود بداخلها.

أومأ خميس برأسه مشيرًا ناحية زغلول ومحروس:

- البرديات هناك مع محروس وزغلول، خلِّي هيام تنزل ومعاها الفلوس وابعتي حد من رجالتك ياخد البرديات.

احتدَّت قائلة وهي تغادر السيارة:

- هروح بنفسي.

اتجهت صوب محروس وزغلول بخطوات صارمة واسعة فنهض الاثنان واقتربا منها فصاحت بحدَّة:

- فين البرديات؟

تأملها محروس بإعجاب بالغ وأطلق صفيرًا قصيرًا قبل أن يقول وهو يغمز بعينه:

- طب عليا النعمة إنتي خسارة في سكة الإجرام دي، تعالي معايا وأخليكي نجمة سيما فشر نادية الجندي.

رمقته بامتعاض بالغ وبَصقتْ أرضًا قبل أن تقول بفظاظة:

- فين البرديات يا.. أمك؟!

تدلَّى فك محروس لدى سماعه السبَّة بينما ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجه زغلول الذي أشار إليه محروس، فالتفتت ناحية زغلول بغضب:

- فين الحاجة يا له؟

ازدرد لعابه بصعوبة وتلعثم وبالكاد نطق قائلًا:

- خلي الرجالة ينزلوا هيام من العربية ومعاها الفلوس.

رمقته بعصبية لثوان قبل أن تطلق سبَّة بذيئة أخرى وهي تضع الهاتف على أذنها:

- نزل البنت من العربية ومعاها الشنطة، وخليك جنبهم، لو حصل أي تلاعب اقتل الاتنين.

امتُقع وجه زغلول، بينما هبطت هيام من السيارة ووقفت بجوار خميس الذي حوَّطها بذراعه بينما وقف أحد الرجال خلفهم متحفزًا ويده تتحسس سلاحه أسفل ملابسه.

صاحت سوزان بصرامة:

- أظن كدا أخد بقى البرديات.

ابتسم زغلول ببلاهة:

- طبعًا.

قالها ورفع جلبابه لأعلى فصاحت سوزان بانزعاج بالغ:

- بتعمل إيه يا ابن الكلب يا متخلف؟!!

وضع يده في سرواله وراح يعبث يمنة ويسرة قائلًا بتلقائية:

– بجيب البرديات.

أخذت تتأمله بذهول طاغٍ قبل أن يقبض بيده على شيء ما قائلًا بسعادة:

– الحمد لله لقيتها.

قالها وسحب يده خارجًا ملوِّحًا بالبرديات في وجه سوزان التي راحت تتأملها وهي مبهوتة تمامًا مترددة في التقاطها فصاحت في غضب:

– أنت مختل عقليًا؟ أنت حاطط البرديات فين؟

– في أأمن مكان في الدنيا.

جزَّت على أسنانها وتحاملت على نفسها والتقطت البرديات من يده وراحت تتفحصها بضيق بالغ لأكثر من دقيقتين قبل أن تُجمجم بغضب:

– يا ولاد الكلب يا متخلفين.

قالتها والتفتت عائدة إلى السيارة مشيرة إلى رجالها أن يتركوا خميسًا وهيام. فسارع الاثنان بالتحرك ومن خلفهما زغلول ومحروس. فيما استقلت سوزان السيارة وتحركت هي الأخرى، بينما تبسمت نور بظفر وهي تتابع المشهد بسعادة متحدثة في الهاتف:

– مبروك يا دكتور، العملية تمت على خير، وسوزان خدت البرديات.

* * *

ولِجت سوزان مكتب الدكتور ملوحة بالبرديات بسعادة بالغة وعلى الرغم من عدم رؤيتها وجهه فإنها شعرت بالغبطة الهائلة في نبرة صوته:

– أخيرًا يا سوزان.

تنهَّدت بارتياح:

– أخيرًا يا دكتور.

تحرك ناحيتها ببطء وهي تمد يدها باللفافات قائلة:

– مش هتتخيل المتخلفين دول كانوا حاطين البرديات فين.

– عارف، عارف.

قالها بهدوء وملامحه تتبدَّى في الإضاءة ليظهر وجه طارق والضمادة تغطي أنفه المصاب. تلقَّف البرديات بحُبور والتقط نفسًا عميقًا وهو يسترخي على الأريكة وبجواره سوزان:

– ياه، أخيرًا انتهت أصعب عملية في حياتي.

أطلقت هي الأخرى تنهيدة ارتياح بينما أشار هو إلى مكتبه.

– هاتي التليفون خليني أطمن الناس.

وَثَبَتْ بسعادة ناحية المكتب بينما أخذ هو يفضُّ اللفافات بحرص ويتفحصها بدقة بالغة. عادت إلى الأريكة بجواره بينما انهمك هو في تفحصه. ثوانٍ وبدت عليه العصبية وبدأ يقلب الأوراق في توتر واضطراب وهو يُلقي ببعضها أرضًا. دبَّ الذُّعر في قلب سوزان وتساءلت بصوت مرتعش:

– في إيه؟

ألقى طارق بالبرديات أرضًا وهوى على وجهها بلطمة هائلة ارتجَّ لها جسدها بينما صرخ بغضب هادر وهو ينقضُّ بشراسة على عنق سوزان:

– الفلاحين ضحكوا عليكي، سلموكي برديات تانية.

وقعت المفاجأة عليها كالصاعقة، فامتُقع وجهها وارتجف بدنها ووضعت يدها على فمها وقد جحظت عيناها.

– أنت بتقول إيه؟ مستحيل، أنا مش ساذجة ولا تلميذة أنا بقالي عشرين سنة في الشغل ده واعرف البردي الأصلي من المزيف.

تزايد غضبه فدفعها إلى الخلف بعنف وراح يضرب بقبضته جانب الأريكة بجنون:

– أنا مقلتش مزيفة، لكن مش هي البرديات المطلوبة، البرديات اتغيرت.

– إيه؟

– غيروها ببرديات أصلية كلها نصوص من كتاب الموتى.

– والبرديات دي جابوها منين؟

تساءلت بذهول وقلبها يكاد يقفز من بين أضلاعها فصرخ فيها بانفعال:

– فيه حد تاني دخل على الخط يا مدام، وضحك علينا.

صاحت بحسرة:

– يعني العيال دول خدوا البرديات الأصلية ومعها مليون جنيه.

انقضَّ عليها ثانية وأمسك رأسها بوحشية:

– أنا اللي هاخد روحك لو معملتيش المستحيل ورجعتي البرديات.

صرخت بألم ممزوج برعب وأنفاسها تكاد تخمد:

– هقلب الدنيا عليهم، وهخلي الرجالة يفتشوا كل بيت في مصر لو اضطر الأمر، أوعدك خلال ساعات هيكونوا عندك.

اقترب بوجهه حتى لفحت أنفاسه الملتهبة وجهها وصاح بجنون:

– أدامك أربعة وعشرين ساعة وبعدها اعتبري المهمة انتهت ومعاها حياتك.

* * *

انحنى في بستانها يُنسِّق زهورها الحمراء، ويُهيئ الرحيق لأسراب النحل القادم من بعيد، زهور العيد أينعت وتمايلت ومسحت على جبهته. تبسَّم، فأضاء محراب قلبه، وتصاعدت منه التلاوة إيذانًا بقرب بزوغ الفجر، توضأ بماء عينيها وأدَّى الفرض، ثم ارتقى عرشها المصون، نَثَر بذور الريحان، وغرس أشجار المسك والكافور، وروى أشجار الليمون. أضاء شمعة يُهدي وَهَجها السفن الضائعة والأحلام التائهة. وجد ترنيمة على طرف لسانه فراح يُلقيها بخشوع في حضرتها «أنت سرِّي المكنون، وطالعي الميمون، يا مطلب المريدين، وغاية السالكين، يا جنة العارفين، وريحانة المقربين، يا دُرَّ الأصداف وبحر الأوصاف». ذاب في نشوة ليس لها قرار ولذة هي مطلب الأبرار، وحين فرغ أوصد باب قُدس الأقْداس وأودع قُفله قلبه.

سعادة غامرة اجتاحت خميسًا وهو يتأمل هيام التي جلست ملتصقة به واضعة رأسها على كتفه. بينما جلس زغلول قريبًا منهم يَعُدُّ الرزم المكدَّسة أمامه هو ومحروس بنشوة عاتية. همس خميس بحنان جارف:

– حمد لله على سلامتك يا هيام، والله لك وحشة يا رزية.

– أنت كمان وحشتني، كنت خلاص قلت مش هشوفك تاني.

– بعد الشر يا بت، ده أنتي مرات المارشال.

ضحك لثوانٍ ثم أردف:

- أما أنا حصل معايا حاجات يا بت..

بَتَرَ كلامه إثر انتفاض زغلول صارخًا بجنون وهو يمسك برزمة من النقود:

- يا لهوي يا خميس، اتنصب علينا، اتنصب علينا.

وقع قلب خميس بين رجليه ووثب ناحية زغلول متسائلًا باضطراب:

- حصل إيه؟ اتنصب علينا ازاي؟ الفلوس مزورة؟

- لا، ناقصين مية جنيه.

وكزه خميس بغضب في كتفه:

- جاتك رزية سَيِّبت ركبي.

هدأ قليلًا ثم ضحك قائلًا:

- اعتبرها ياض مواصلاتنا.

انخرط الأربعة في نوبة ضحك جماعيٍّ لم يقطعه سوى تساؤل محروس:

- والبرديات هتعمل فيها إيه؟

ابتسم خميس بثقة:

- هترجع لصاحبها، خلي العالم كله يعرف الحقيقة اللي جواها، وبرضه عشان طارق يعرف إن التعليم مش جامعة وبس، نحو الأمية برضه شهادة لها قيمتها.

* * *

بيد مُرتعشة أمسكت سوزان بعلبة السجائر، أخرجت واحدة وأشعلتها ودسَّتها بين شفتيها وهي ترمق طارقًا بتوتر بالغ. راحت تنفُثُ الدخان بعصبية ثم قالت بصوت يفيض يأسًا ومرارة:

– كأنَّ الأرض انشقت وبلعتهم مش لاقيين لهم أي أثر.

لم يَبْدُ عليه أنه حتى سمعها، راح يرمق مصباح الحجرة بشرود. تراقصت الأضواء في عينيه، تموَّجت وتوهجت واصطبغت بزرقة غامقة، فحمرة داكنة، تم استحالت سوادًا دامسًا. أغلق عينيه وراح يهزُّ رأسه محاولًا هدم جبال الخوف التي توغلت جذورها حتى أعمق أعماقه، واستطالت حتى استحالت دودًا شرهًا أخذ ينخر في عقله نخرًا. تشظَّت أفكاره وتشرذمت. دخان سيجارته أخذ يحتشد حول وجهه كغيوم سوداء غاضبة. تراءى له حبل غليظ يتدلَّى من وسطها، طفق يلتفُّ حول عنقه. استسلم وتركه يُحكم عُقدته متمنيًا نهاية سريعة، لكنه سرعان ما انتبه على لسعة في يده من سيجارته التي انتهت من دون أن تقْربَ حتى شفتيه. استدار ناحية سوزان وهو يَدفن سيجارته في المطفأة. ودَّ لو كان جسده هذا الذي يواريه التراب. رمق سوزان بنظرة حائرة مضطربة قبل أن يقول:

– لحظة الفشل اللي طول عمري خايف منها، توقعتها تحصل في ظروف كتير، لكنها مرت بسلام.

صمت وراح يهزُّ رأسه بعصبية ثم استطرد:

– ويوم ما تيجي تبقى غير متوقعة، وعلى إيد شوية سذج متخلفين.

زاد حَنقه وغضبه وهو يقول:

– أظن مفيش نهاية أسوأ من كدا.

تساءلت سوزان بانهيار وهي تكاد تنشِج:

– والعمل إيه دلوقتي، الناس اللي برا مش هتسيبنا.

هزَّ رأسه بخوف:

– خلينا ننتظر اللي هيحصل، مفيش حل تاني أدامنا.

بَتَرَ كلامه إثر رنين هاتفه فانتفض بلهفة وقلبه يكاد يقفز من بين أضلاعه:

– خميس بيرن.

قالها ووضع الهاتف على أذنه بينما هبَّت سوزان واقفة مستندة بيدها على المكتب بلهفة هائلة وهي تتابع الحوار وجسدها ينتفض بعنف:

– أيوه يا خميس.

– أيوه يا أستاذ طارق، لازم أقابلك النهاردة ضروري.

كاد قلب طارق يتوقف من فرط الانفعال وحاول التحكم في صوته قدر الإمكان:

– خير يا خميس، أعتقد آخر مقابلة بينا مكنتش ظريفة.

قاطعه خميس بضحكة ساذجة:

– انسَ اللي فات، أنا عايز أثبتلك إني مش زي ما أنت متخيل جاهل ومش فاهم.

جلجلت ضحكة خميس وهو يُتبع:

– أنا خزوقت العصابة، وخدت منهم مراتي ومعاها مليون جنيه، واديتهم برديات تانية.

تساءل طارق باهتمام وهو يرمق سوزان بنظرة قاسية:

– يعني إيه الكلام ده، وبرديات تانية إيه، أنا مش فاهم حاجة.

أجابه خميس:

– الواد محروس قريبي حويط ودماغه شغالة، اشترى شوية برديات من واحد من معارفه وبدلناها بالبرديات الحقيقية.

تظاهر طارق بالاندهاش وقال بلهفة:

– برافو عليك يا خميس، والبرديات التانية فين وناوي تعمل بها إيه؟

– ما أنا بكلمك عشان كدا، تقابلني الليلة تاخدها مني، ونرتب موضوع تسليم نفسي للحكومة، وأظن كدا هناخد براءة.

– طبعًا، طبعًا، المهم هقابلك فين؟

– همليك العنوان، اكتبه.

أمسك طارق بورقة وقلم:

– قول يا خميس.

جاءه صوت خميس جادًّا للغاية:

– أمليك العنوان حتة واحدة ولا أتهجاه لك حرف حرف؟

بدا الذهول على وجه طارق وقال بمقْت وحَنق بالغين وهو يبصق في وجه سوزان:

– اللي يعجبك يا خميس.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

ولاية فلوريدا

توقفت سيارة سوداء فارهة أمام كنيسة قديمة مبنية على الطراز القوطيِّ تقع في إحدى البلدات الصغيرة شمال فلوريدا.

ترجَّل من السيارة رجل في منتصف الأربعينيات من العمر صارم المظهر يرتدي حلة سوداء فاخرة ورابطة عنق حمراء وتكاد عويناته السوداء تُخفي معظم وجهه.

انعكست أشعة الشمس على شعره الأشقر فزادته لمعانًا وبريقًا. التقط الرجل نفسًا عميقًا ثم توجه بخطوات واسعة ثابتة نحو الكنيسة. تخطَّى مدخلها ووصل حتى منتصف القاعة. توقف متأملًا المكان حوله بنظرة فاحصة مدقِّقة. لم يكن هناك سوى بضعة أشخاص متناثرين هنا وهناك انهمك بعضهم في القراءة والبعض الآخر هرع إلى حالة من التأمل والهدوء. لمح بطرف عينيه شخصين انتحيا جانبًا في أحد الأركان يتجاذبان أطراف الحديث. دقق النظر فيهما لثوانٍ فالتفت أحدهما ناحيته وأومأ برأسه بإشارة ما وعاد إلى متابعة حديثه. أدار الرجل رأسه في المكان بنظرة خاطفة ثم استدار ناحية اليسار واتجه الى رواق جانبي يُفضي إلى عدد من الممرات سلك أحدهم وقطعه بخطوات واسعة حتى توقف أمام أحد الأبواب طرقه أربع طرقات خفيفة ثم طرقة خامسة قوية وأدار بعدها مِقبض الباب ودَلَف إلى الحجرة. كانت صغيرة تضم مكتبًا يجلس خلفه قَسٌّ شرع في مطالعة كتاب

ما، رفع رأسه ونظر إلى الرجل ومن دون أن يتفوَّه أحدهما بكلمة ضغط القس زِرًّا على مكتبه فانزاح جانبًا من الجدار كاشفًا عن باب خشبيٍّ مُذهب اندفع الرجل ناحيته وفتحه بهدوء ودلف إلى الداخل مغلِقًا الباب خلفه، بينما ضغط القس على الزر مجددًا مُعيدًا الحائط إلى مكانه وعاد لمتابعة قراءته.

وجد الرجل نفسه في قاعة فسيحة أرضيتها مكسوَّة ببساط أحمر مَخمليٍّ وعلى الجدران عدد من الخرائط الضخمة وشاشة عملاقة، وفي نهاية القاعة مكتب عتيق الطراز استقر عليه رجل في الخمسينيات من عمره أخذ يُطالع بعض الأوراق أمامه باهتمام، وخلفه مباشرة اكتسى الجدار بشعار جلديٍّ ضخم يحمل جمجمة يخترقها صليب. توقَّف الرجل على بعد مترين من المكتب ثم فرد قامته باعتداد وخلع عويناته السوداء ثم لاذ بصمت تام.

مرت دقيقة أو أكثر على هذا الوضع حتى تنهَّد الشخص الجالس بحرارة وقال بصوت رفيع هادئ ومن دون أن يرفع عينيه عن الأوراق أمامه:

– سيناتور جون أدامز، يسرني مجيئك.

أومأ أدامز برأسه باحترام بالغ وظل على صمته في حين استطرد الآخر:

– تابعت بالأمس جلسة التصويت في الكونجرس التي أدرْتها ببراعة، راقني ما فعلته أدامز. يومًا بعد الآخر تثبت كفاءتك وجدارتك.

راقه الإطراء وأنشاه فانفرجت شفتاه عن بسمة هادئة وقال:

– نحن فقط ننفذ أوامرك أيها الأستاذ.

رفع الأستاذ رأسه ببطء فبدا وجهه الممتلئ، المُشرب بحمرة، وعيناه الداكنتان اللتان أضْفتا عليه نوعًا من الغموض وقال بصوته الهادئ:

– هذه الأخوية ما كان لها أن تستمر وتحقق كل تلك النجاحات لولا جهود المخلصين والمؤمنين أمثالك أيها السيناتور.

قالها وغادر مقعده بهدوء لتظهر قامته المائلة إلى القِصر وزيُّه الأسود الشبيه بأردية الرهبان. توجه ناحية أدامز الذي طأطأ برأسه توقيرًا وتبجيلًا للأستاذ الذي أردف في حماسة وهو يربِت على كتفه:

– حتى هذا البلد ما كان لتُشيَّد أركانه وتتوطد حضارته لولا أمثالك.

قالها والتفت إلى يساره متأملًا خارطة ضخمة تحتل جزءًا كبيرًا من الجدار، ظُللت معظمها بلون أسود قاتم، أشار إليها الأستاذ قائلًا:

– هذه الخارطة توضح العالم منذ قرون، قُبيل تأسيس الأخوية، كل تلك الأجزاء المظللة بالسواد كانت تحت هيمنة الحضارة العربية، وحينها كانت حضارتنا الأوروبية مهددة بالزوال. فقدنا حواضرنا في مصر وسوريا والقدس وإفريقيا، حتى إسبانيا فقدناها هي الأخرى، بل وصل الأمر أن اقترب العرب من أسوار باريس.

لاذ بالصمت لبعض الوقت وهو يتأمل ملامح أدامز ثم أردف:

– في تلك الآونة كان العرق الأبيض على وشك الزوال والذوبان داخل تلك الحضارة البدوية. شعر أسلافنا بالخطر الداهم فبدأ المخلصون منهم مجابهة ذلك المد العربيِّ. النبيل القوطيُّ العظيم بلايو قرر المقاومة فاحتمى بمغارة دونجا في منطقة صخرية وعْرة، وتحمَّل العناء وبدأ حشد الرجال خلفه وأنشأ الأخوية في إسبانيا في القرن الثامن، ليبدأ أسلافنا نضالهم، فبذلوا الغالي والنفيس من أجل حماية العرق الأبيض، وقاموا بالكثير من

الأمور العظيمة، أشعلوا الحرب المقدسة وهاجموا الشرق بكل ضراوة، وبدأنا في إسبانيا حروب الاسترداد وحققنا نجاحات عظيمة طوال قرون.

صمت قليلًا وقد لاحت عليه أمارات الأسى:

– لكن جاءت الانتكاسة الكبرى مع سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك.

تنهَّد بمرارة وهو يُتبع:

– كانت مأساة رهيبة، فاجعة عصيَّة على النسيان، كارثة ملحمية قذفت في عروقنا حِمَم خوف هائلة.

تغيَّرت لهجته وبدا فيها نوع من القوة والصرامة:

– لكنها أيضًا كانت الحافز لنا على مواصلة الكفاح، كانت لحظة فارقة فاصلة وكنا أمام خيارين أن نبقى ونقاوم أو نستسلم ونذوب في تلك الحضارة الهمجية كما ذابت أمم أخرى. قرر أسلافنا في الأخوية المقاومة ومواصلة الطريق وتكللت جهودهم بنصرين عظيمين؛ أولهما إنهاء حكم العرب في إسبانيا وثانيهما اكتشاف الأمريكتين.

شَرَد لثوانٍ وهو يقول بصوت أشبه بالغمغمة:

– ربَّاه، كيف تمكَّن هذا الشعور أن يُصقلنا وأن يسري في عروقنا حِمَمًا متأججة تدفعنا إلى الأمام دفعًا.

قالها وأطلق بعدها زفرة حارة واستدار عائدًا إلى مكتبه وجلس باسترخاء مشيرًا إلى أدامز بالجلوس مقابله وراح يكمل حديثه بحماسة بالغة:

– بدأ الأمر مصادفة، بردية فرعونية بها خريطة تقع في أيدي الأخوية، في البداية ظنوا أنها أسطورة عن شيء يُسمى نبع الحياة، آمن الأسلاف بالأسطورة وعملوا من أجلها، لكنهم لم ينجحوا في فك شفرة الخريطة إلا عام 1490م وبعد ذلك بعامين وصل كولومبوس عن طريقنا إلى الأمريكتين ومعه رجال الأخوية. لم يجدوا نبع الحياة لكنهم وجدوا ما هو أعظم من ذلك، أرضًا خصبة شاسعة مهيأة ومجهزة لاستيعاب الحضارة الأوروبية من جديد، أرضًا سيسودها العِرق الأبيض ويجعلها مقرًّا له لفرض سطوته وسيطرته على العالم أجمع.

نطق العبارة الأخيرة بنشوة عاتية وأشار إلى خارطة أخرى:

– والآن انظر، هذه خارطة العالم الآن لا يخلو جزء منها من نفوذنا وهيمنتنا، العرق الأبيض صار هو الحاكم والسيد كما خطط لذلك أسلافنا.

صمت قليلًا وهو يحدج النظر في عيني أدامز قبل أن يقول بصوت عميق:

– أتدري ما نقطة التحول التي قلبت مجرى التاريخ لصالحنا؟

لم ينتظر إجابة من أدامز راح يستطرد بحماسة مفرطة:

– حرقُ كتب ابن رشد ونهايته التعيسة الأليمة. أجل، ما حدث لابن رشد أرهب علماء المسلمين من بعده، غالبيتهم خافوا من مخالفة المتوارَث والمألوف، خافوا من إظهار عبقريتهم وعلمهم خشية الرمي بالزندقة والكفر فتأخرت أمتهم واضمحلَّ مجدهم.

همَّ أدامز بطرح تساؤل ما لولا أن أردف الأستاذ بحماسته نفسها:

– من أول من قال بنظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها؟

- كوبرنيكوس.

- خطأ.

قالها الأستاذ بجذل وهو يتراجع في مقعده متأملًا ملامح أدامز الذاهلة.

- من إذن؟

- علماء المسلمين.

ألقى مفاجأته في وجه أدامز الذي انتفض مدهوشًا والأستاذ يُردف:

- أجل، علماء المسلمين هم أول من توصلوا إلى ذلك، البتانيُّ، وابن الشاطر، ونصر الدين الطوسيُّ، ومؤيد الدين الأورديُّ وقطب الدين الشيرازيُّ، وابن الهيثم، وابن رشد.

- ماذا؟!

- كل هؤلاء انتقدوا النظام الأرسطيَّ والبطليموسيَّ القائل بأن الأرض هي مركز الكون وأنها ثابتة وأن الحركة الدائرية هي الكمال الأقصى وبذلك فإن الشمس والقمر والكواكب والنجوم تتحرك حول الأرض في أفلاك دائرية منتظمة. وضع هؤلاء نظريات جديدة دَحضتْ النظرية الأرسطية وأبانت عَوارها، وقد نَهَل كوبرنيكوس من علوم هؤلاء واقتفى أثرهم، بل حتى جميع النماذج الفلكية التي استخدمها كوبرنيكوس كانت متشابهة للغاية مع أعمال مدرسة مراغة التي أسسها الفلكيُّ نصر الدين الطوسيُّ في بلاد إيران، وبالتحديد نماذج ابن الشاطر، لدرجة أن كثيرًا من المؤرخين وصفوا كوبرنيكوس بآخر طلاب مدرسة مراغة.

- لكن التاريخ يقول إن كوبرنيكوس هو أول من..

قاطعه الأستاذ بإشارة من سبابته قائلًا:

– وهنا يأتي دور مأساة ابن رشد.

قالها وهو يهزُّ رأسه بثقة متبعًا:

– أجل، ظلت مأساته عالقة في الذاكرة الإسلامية، فخشي هؤلاء العلماء من إعلان كشوفهم تلك والتصريح بها علانية خشية مخالفة المألوف والمتوارث، خشية ألا يتقبل العالم أو يعي نظرياتهم، فتداولوا تلك النظريات في نطاق ضيق وأدرجوها في كتبهم وأوراقهم، وتركوها للزمن، لكن كوبرنيكوس امتلك الجرأة في أن يُعلن هو ويتحدى العالم بأسره، وحسنًا فعل، فقد قادت نظريته إلى عالم جديد، عالم صرنا نحن رواده وأسياده.

حلَّ صمت مهيب لبضع ثوانٍ والأستاذ يحكُّ طرف أنفه قبل أن يلتفت عن يمينه متأملًا آلة حديدية غريبة قائلًا بصوت عميق:

– أتدري ما سبب تفوقنا أيها السيناتور؟

لم ينتظر ردًّا، راح هو يجيب:

– الإبداع، أجل الإبداع، نحن أمة مبدعة خلَّاقة، لم نكتفِ بالتعلم من غيرنا ومحاكاتهم، بل أيضًا كانت لنا بصمة رائعة عظيمة.

أشار إلى الآلة الغريبة مستطردًا:

– هذه الآلة اخترعها العرب في غرناطة، كانوا يستخدمونها في عمليات الشواء بدلًا من السفافيد التقليدية. حينها كانت إعجازًا لا أُنكر أن أسلافنا وقفوا أمامه منبهرين مبهوتين. آلة تستخدم البخار في الدوران وتقليب اللحم على الجمر من دون تدخل بشريٍّ. كانت أول آلة في التاريخ تتحرك عن طريق البخار.

نَقَر بأصابعه على سطح مكتبه وهو يتأمل الآلة بإعجاب:

– حملها أسلافنا معهم حين وطئوا تلك الأرض، لكنهم لم يكتفوا باستخدامها في الشواء، طوروها حتى حركنا به أعظم اختراع في التاريخ له الفضل في قيام أمريكا. القطار الحديديِّ.

قالها بانفعال ولعابه يتطاير من فرط التأثر:

– أجل، لولا القطار ما اتَّحدت تلك الولايات وصارت بلدًا واحدًا، ولولا القطار لما نشأت حكومة مركزية قادرة على الإمساك بخيوط هذه الأرض وزمامها، بفضل القطار توحَّدت أمريكا وصارت ما صارت عليه الآن. وكل هذا بفضل الإبداع أيها السيناتور.

صمت لثوانٍ وهو يبتلع ريقه وعاد يتابع حديثه:

– إن كان هؤلاء سبقونا في مضمار الاختراع فنحن تجاوزناهم في مضمار الإبداع، لا ننكر أنهم أذهلونا فيما مضى باختراعاتهم التي عُدَّت في زمانها من أعمال السحر وفعل الجان، كروبوتات القرافي التي تسير وتتكلم، وكآلات الجزريِّ العظيمة التي كانت الأساس لعلوم الميكانيكا، والآلات ذاتية الحركة العاملة بالماء والساعات المائية والآلات الهيدروليكية، حتى إن الناس من شدة انبهارهم أسموا هذا العلم باسم «الحيل» فلم يجدوا حينها في قاموسهم كلمة تقدر على وصف اختراعاتهم هذه إلا بتلك الكلمة، بعد ذلك جاء دورنا، نَهلْنا من هذا المَعين وارتشفناه حتى آخر قطرة، ثم طورناه حتى صار ما ترى.

أومأ أدامز برأسه مؤمِّنًا على كلام الأستاذ الذي ابتسم قائلًا:

– أعلم أنك تعي هذا التاريخ عن ظهر قلب، فقط أُعيده على مسامعك ليظل يُلهب حماسك ويثيرك حتى ندرك أهدافنا الكبرى.

ابتسم أدامز وقال بحماسة مفرطة:

– تأكد أيها الأستاذ أننا لا ينقصنا الحماسة والدوافع لمواصلة طريقنا حتى نصل إلى مرادنا.

تنهَّد الأستاذ بمرارة وقال بضيق:

– مرادنا!! الذي يحاول البعض إفشال السعي من دون تحقيقه، ومع الأسف محسوبون على بني جلدتنا، حمقي في الكنيسة وحمقى داخل الحكومة ينبِشون خلفنا، ولا يدري هؤلاء كيف ضحَّينا حتى وصلوا إلى ما هم فيه من مجد وسلطة. لولا أخويتنا وما فعلته طوال قرون ما كان لهؤلاء أن تقوم لهم قائمة.

صمت قليلًا وارتسمت ابتسامة ماكرة على وجهه وراح يحكُّ أسفل ذقنه بخنصره وهو يقول:

– لكن لا بأس، لا ضير من بعض اللهو والعبث، هؤلاء لا يقدرون نفوذنا ولا يدركون مدى اختراقنا لدوائرهم الخاصة.

أطلق ضحكة جذلة واستطرد:

– ذلك المأفون بيل هوبز، ينبش خلفنا طوال الوقت من دون أن يدرك أن زوجته إحدى المُخلِصات في هذه الأخوية.

بادله أدامز الضحك وقال بثقة عاتية:

– كثيرون نبشوا خلفنا ولم يصلوا إلى شيء، ولن يصلوا أبدًا. وحتى من سيشم أنفه طرف معلومة نجعلها آخر ما يعرف في حياته. نحن أيها الأستاذ كالملح في البحر موجودون ومؤثرون وفاعلون لأقصى درجة لكن لا أحد يرانا. طِبْ نفسًا أيها الأستاذ المبجَّل.

– هذا صحيح أيها السيناتور، لكن ينبغي ألا نترك شيئًا للمصادفة، لقد قلَّلنا كثيرًا من شأن جاري وولش وترى كيف وصل الأمر الآن.

قال أدامز بحنق:

– حماقته كادت أن تودي بنا وتفسد كل ما فعلناه.

أضاف الأستاذ بانزعاج:

– بل تفسد حتى كل ما فعله الأسلاف. لا تتخيل أدامز حين وصل رجالنا الأوائل إلى هنا كيف راعتهم وهالتهم بقايا الفراعنة، فعكفوا سنين طوال على إزالة كل ما يمت بصلة إلى تلك الحضارة ويدمره، أزالوا المعابد والمباني وتتبعوا حتى المقابر ومَحَوْها من الوجود واحدة تلو الأخرى، وطوال قرون ظلت الأخوية تقاتل من أجل ذلك السر، تتبعنا مئات من علماء الآثار وتخلصنا منهم، ودمرنا آلاف البرديات ومئات المقابر هنا وفي مصر وأستراليا وأمريكا الجنوبية، لكن ذلك الكشف الأخير يمكنه أن يمحو أثر كل ما فعلناه ويكشف الأمور مجددًا، وحينها ستكون طامة كبرى. هؤلاء المأفونون الذين لا يكفُّون عن الترويج لاكتشاف الفراعنة للأمريكتين مستندين إلى دلائل بسيطة، هذا الكشف سيُحوِّل نظرياتهم إلى حقائق دامغة ثابتة، لن نستطيع حيالها شيئًا، أما إذا نجحنا في إخفاء تلك البرديات فلن يعثروا على

المقابر الأخرى، وستظل نظرياتهم موضع الشك ولن يلتفت أحد إليهم، سيصيرون في خانة المهووسين بالفراعنة لا أكثر من ذلك.

سأله أدامز بقلق:

– هل من جديد في مصر؟

– الدكتور أوشك على الوصول إلى البرديات، حدثت له بعض الإخفاقات، لكنه سرعان ما استعاد التحكم في اللعبة مجددًا.

– هل تثق به أيها الأستاذ؟

أجابه الأستاذ بثقة:

– الدكتور لا ينتمي إلى الأخوية، لكنه تابع مخلص، ويتقاضى مقابل ذلك أموالًا باهظة، وليست تلك مهمته الأولى معنا، إنه رجل مُتمرِّس لم يفشل في مهمة من قبل.

صمت هُنَيْهَة ثم انحنى بجسده إلى الأمام محدقًا في أدامز وقال بصرامة:

– وكما يدرك مدى سخائنا، يدرك أيضًا مدى غضبنا وسخطنا.

– كنت أود أن يقوم رجالنا نحن بتولِّي تلك المهمة.

تراجع في مقعده قائلًا:

– أنا أيضًا كنت أرغب في ذلك، لكن الأمور تطورت بشكل مفاجئ وسريع، حينها كان لا بد من التدخل العاجل والدفع بأحدهم داخل الحلبة، ولم يكن أمامنا سوى الدكتور.

– وماذا لو؟

قاطعه الأستاذ بحزم بالغ مشيرًا بسبابته:

– قاموسنا لا يحوي تلك الكلمات، لا بديل عن الظفْر بتلك البرديات، والتخلص منها مثل سابقيها.

قالها الأستاذ وعاد إلى الاسترخاء في مقعده بينما ران على المكان صمت مُطبق، صمتٌ يحمل الكثير من التساؤلات والمخاوف. صمت جذوره ضاربة في جوف الزمن، فهل تظل متماسكة أم يبوح الدهر بما طال كتمانه؟

* * *

الفصل الخامس والعشرون

ترجَّل طارق من سيارته بتمهُّل وهو يرمُق المكان حوله بنظرات فاحصة. دقق النظر قليلًا في البيت الصغير الذي يحمل شعار إحدى شركات الإنتاج السينمائيِّ. أخذ نفسًا عميقًا وخطا ناحية البيت بخطوات بطيئة حذِرة وطرق الباب. ثوانٍ وفتح زغلول الباب وعلى شفتيه ابتسامة واسعة:

– اتفضل يا أستاذ في انتظارك.

حدجَه طارق بنظرة متفرِّسة ثم سار خلفه إلى داخل البيت فلمح خميسًا يجلس بجوار هيام وهما منهمكان في حديث ما بدا من خلال وجه هيام أنها غاضبة بسبب الحوار. لمح خميس طارقًا فربَت على كتف هيام ثم هرول بسعادة ناحية طارق:

– أهلًا يا أستاذ طارق.

– ازيك يا خميس، عامل إيه، طمني عليك وعلى المدام.

– كله تمام الحمد لله.

قالها وهو يشير إلى زغلول:

– اقعد مع هيام وطمنها، وأنا هدي الأمانة للأستاذ.

غادر زغلول بينما اصطحب خميس طارقًا إلى حجرة واسعة الأرجاء خافتة الإضاءة بعض الشيء. استهلَّ خميس الكلام قائلًا:

– لولا محروس كان زماننا اتقبض علينا، المكان هنا ولا حد يتخيل إن إحنا فيه.

هزَّ طارق رأسه وهو يدور بعينه في المكان:

- مكان غير متوقع فعلًا.

اندفع خميس قائلًا في حماسة:

- أيوه، بيصوروا هنا أفلام ومسلسلات، حاكم الواد محروس شغال كولوكوت وبيـ..

قاطعه طارق بنفاد صبر:

- مش وقته الكلام ده، فين البرديات؟

ابتسم خميس بثقة:

- اطمن في الحفظ والصون.

تأمله طارق باستغراب وخميس يسأل باهتمام:

- قولي يا أستاذ طارق، الريحة اللي بتحطها دي اسمها إيه؟

ضاقت عينا طارق وقال في ذهول:

- ريحة إيه يا خميس دلوقتي؟ خلينا في المهم، فين البرديات؟

كأنه لم يسمع طارقًا، راح يقول:

- مستوردة دي؟ أصل ريحتها ماسكة في مناخيري.

- مالك يا خميس؟

قالها طارق بعصبية فأجابه خميس بنفس اللهجة:

- أصل احنا عندنا في البلد منعرفش غير ريحة تلات خمسات بس، فأي ريحة تانية بتلزق في مناخيري، واستحالة أنساها.

صمت قليلًا وهو يُطالع وجه طارق الذاهل ثم قال بثقة ملقيًا مفاجأته المدوية:

– من أول مرة شميتها وأنا فاكرها، ساعة لما أنت قتلت الغفر وضربتني على راسي بعد ما سرقت البرديات من المقبرة، وسبتني سايح في دمي عشان تلبسني القضية.

وقعت المفاجأة على طارق كالصاعقة فتجمَّدت الكلمات في حَلْقه واجتاحه ذهول هائل وخميس يستطرد بتهكُّم:

– بقى يا رجل جاي تقتل وتسرق، ولابس جوست ومكلف، كان لازم يعني تحط ريحة أهي التناكة دي وقعتك.

قالها وأطلق ضحكة جذْلة بينما تحفَّزت خلايا طارق وتصلَّبت ملامحه وخرج صوته حادًّا عنيفًا:

– أنا مش عارف أنت بتتكلم على إيه، ريحة إيه وقتل إيه، أنت مجنون؟!

اتسعت ابتسامة خميس وتحرك خطوتين للأمام:

– هو صراحة موضوع الريحة مخدتش بالي منه غير لما عرفت كل حاجة، ساعتها افتكرت موضوع الريحة، لكن اللي أكد لي أكتر أنك أنت الجوست لسانك.

اضطرب طارق أكثر وامتُقع لونه وخميس يُردف:

– فاكر لما كنا في جامع سيدنا الحسين، وقلت ليَّا إن الحظ كان بيساندنا لما أخدنا البرديات من العربية، عرفت إزاي؟ مع إني مقلتش لك موضوع العربية ده خالص يا دكتور طارق.

ضحك، وأضاف:

– لا وإيه سايبني أقولك يا أستاذ أنت مكسوف تقول دكتور؟!

تنفَّس طارق بعمق وبدأت الشراسة تغزو ملامحه فصاح بغضب وهو يرمُق خميسًا بمقْت هائل:

– يعني اللعب بقى على المكشوف، كويس جدًّا.

قالها وأخرج مسدسه وصوَّبه ناحية خميس الذي لم يَبْدُ عليه أيُّ انزعاج أو خوف وطارق يصرخ:

– فين البرديات يا له؟

تأمَّله خميس بحزن وقال:

– تعرف إني كنت مصدقك ومصدق لهفتك عليَّا ونصايحك ليَّا، وسلِّم نفسك يا خميس والعدالة يا خميس، والتاريخ وبلدنا والكلام اللي كنت بتضحك عليَّا بيه عشان أطمن لك، كنت مصدقك لدرجة إنك لما وقعت بلسانك مخدتش بالي برضه.

ازدادت عصبية طارق وقال بلهجة غاضبة متهكِّمة:

– أومال خدت بالك امتى يا مارشال خميس؟

صمت خميس قليلًا تاركًا الفضول يتلاعب بعقل طارق قبل أن يقول بنبرة هادئة واثقة:

– لما اتمسكت في المحطة وخدوني القسم وجيت ليا ومعك نور الصحفية، يومها نور ادتني ورقة من غير ما أنت تاخد بالك يا جوست.

تساءل طارق باستغراب وفضول:

– ورقة إيه؟

– الورقة اللي غيرت كل حاجة، أول ما قريتها كل حاجة اتكشفت أدامي، ريحتك ووقعة لسانك كل حاجة ظهرت ساعتها يا جوست.

صمت قليلًا، ثم قال:

– أهو اليوم ده بالذات حمدت ربنا إني خدت نحو الأمية لولاها مكنتش أعرف أقرأ الورقة.

أطلق ضحكة مُجلجلة وراح يقول:

– أه والله، نحو الأمية لها فوائد.

* * *

قبل أربعة أيام

جامع الحسين

– أنت عرفت منين موضوع هيام؟

رفع رأسه متسائلًا فأخذته دهشة عارمة. كان المكان حوله خاليًا تمامًا. انتفض واقفًا كالملدوغ متلفتًا يمنة ويسرة باحثًا عن الشيخ خضر فلم يعثر على أحد. أفاقَ من دهشته على صوت الأذان توضأ وصلى وغادر الجامع وقد حسم أمره. أمسك بالهاتف وطلب رقم أحدهم:

– أيوه، أنا خميس، لازم نتقابل ضروري.

لم تمضِ ساعة إلا وهو جالس في السيارة يتأمل نور بحذر قائلًا:

– مراتي في إيديهم، بتقولي إنك هتقدري تساعديني.

ابتسمت بثقة:

- اطمن احنا معاك.

سألها بتخوُّف واضح:

- إنتوا مين؟

من دون أن تنظر إليه قالت:

- هتعرف لما نوصل حالًا.

تمتم بصوت خفيض:

-أنا قرأت الورقة اللي حذرتيني فيها من طارق وبتقولي إنه هو اللي ورا كل حاجة ومعاكي الدليل.

صمت قليلًا ثم هزَّ رأسه بأسًى:

- وإن كنت أنا بعد ما قرأت رسالتك بدأت أجمع وأربط خيوط مع بعض وفهمت منها حاجات كتير.

ابتسمت:

- هتروح عند حد هيفهمك كل حاجة.

غمغم بقلق رهيب:

- أهم حاجة مراتي، هيام لازم ترجع.

أخذته نور إلى فيلا صغيرة مُنعزلة على أطراف القاهرة. قادته إلى داخلها حتى وصلا إلى حجرة واسعة تضم مكتبة ضخمة ومكتبًا يجلس عليه شخص يُولِّيهم ظهره. ابتسمت نور ورفعت صوتها قائلة بسعادة غامرة:

– خميس وصل يا دكتور.

استدار الدكتور ناحيتهم ببطء فشَهَقَ خميس من فرط المفاجأة وجحظت عيناه وهو يقول:

– دكتور مخيون؟ أنت عايش؟ إزاي؟

نهض الدكتور مخيون ببطء وهو يستند على عصا خشبية وتوجَّه ناحية خميس والبسمة تعلو وجهه:

– دي حكاية كبيرة بس مش أكبر من حكايتك يا مارشال.

صاح خميس بمرارة:

– ده أنا حكايتي حكاية، البرديات جت لعنة عليَّا، أنا حاسس إن دي لعنة الفراعنة وصابتني.

– وممكن تكون منحة من الفراعنة.

تساءل خميس في حيرة:

– أنا مش فاهم حاجة خالص، مين معي ومين ضدي وإيه الحكاية أصلًا؟!!

جلس الثلاثة فيما تنهَّد مخيون بحرارة:

– أنا هحكي لك كل حاجة يا خميس.

أصغى خميس بكل حواسه ومخيون يعود بالذاكرة إلى الخلف وراح يقصُّ على خميس ما كاد يُفقده صوابه.

– بعدما اقتربت أنا والبروفيسور كامبل من تحديد مكان المقبرة، قتلوا البروفيسور وسرقوا الخريطة، لكن قبل ما كامبل يلفظ أنفاسه الأخيرة قال

ليًّا على القاتل. صورة شافها على مكتبي كان فيها عدد من الأشخاص. قال لي كلمة واحدة بس: «القاتل على يمينك في الصورة».

صمت قليلًا وهو يُغالب دموعه ثم أردف بحزن:

– كان طارق هو اللي واقف على يميني.

ضربت الدهشة وجه خميس والدكتور يُتبع:

– طارق كان صديق ليًّا لأكثر من عشر سنين، عمر الشك ما راودني ناحيته أبدًا، نزاهته وأمانته كانت مضرب الأمثال، لكن كلمات كامبل أشعلت نار جوايا وبعد بحث وتنقيب بدأت أمور كتيرة جدًّا تتكشف إدامي، ولقيت إن قناع النزاهة والشرف بيخفوا وجه قبيح جدًّا عند طارق.

تراجع في كرسيه وشبَّك أصابع كفيه ثم مطَّ شفتيه قائلًا:

– كلام كامبل فكرني بقصة قديمة عن طارق حكتها ليًّا والدته، كانت بتتباهى بعزيمته وإصراره وقالت إن طارق في بداية حياته كان مُدمن للقمار وبدَّد الثروة الضخمة اللي ورثها عن والده في مراهنات فاشلة وأصيب بعدها بحالة من الاكتئاب وحاول الانتحار، لكن تم إنقاذه ودخل مصحة تلقى فيها العلاج. وبعد خروجه منها وفي خلال عامين قدر إنه يرجع ثروة والده بالكامل من خلال بيزنس مع شركات أجنبية. القصة في حينها ملفتتش انتباهي لحاجة، لكن مقتل كامبل فتح باب التساؤلات داخل عقلي وصلت من خلاله إلى نوع البيزنس اللي بيشتغل فيه طارق تجارة الآثار.

ابتلع ريقه وراح يتأمل وجه خميس المندهش لمدة ثوانٍ ثم أكمل:

– طارق استغل ثقة اللي حواليه فيه، وأسس منظمة إجرامية متخصصة في سرقة وتهريب الآثار.

التفت ناحية نور وابتسم:

– المعلومات دي عرفتها عن طريق نور، كانت شغالة على ملف فساد عن سوزان ذراع طارق اليمين، والدلائل قادت نور إلى اكتشاف حقيقة طارق.

ابتسمت نور ومخيون يقول:

– أهدافنا تلاقت وبدأت أنا ونور نخطط لمواجهة طارق وكانت أول خطوة إني أكسب ثقته وأضمه لمهمة البحث عن المقبرة كأني بأستعين بصديق مخلص، حكيت له عن كامبل والخريطة وهو تظاهر بالانبهار والدهشة وقرر المشاركة. وده اللي منعه إنه يتخلص مني في البداية حتى أنا نفسي اعتقدت في بعض اللحظات إن صداقتنا ممكن تمنعه من إيذائي.

صمت قليلًا وهزَّ رأسه بحزن:

– لكن بعد شهرين قرر التخلص مني ودبَّر عملية القتل، وطبعًا كان لازم يحبكها بإصابته والتظاهر بأنه نجا من الموت بأعجوبة، أما نور يومها اتكتب لها عمر جديد لما رجعت تجيب المفاتيح.

سكت هُنَيْهَة ثم قال مداعبًا إياها:

– أو يمكن طارق حبها ولغى من دماغه فكرة التخلص منها.

أطلقت نور ضحكة مَرِحة ردًّا على دعابته فيما راح هو يُتبع:

– نجيت من الموت بأعجوبة، ونور اقترحت عليَّا فكرة الترويج لوفاتي حماية ليَّا أولًا وثانيًا عشان أقدر أكمل مشواري في أمان. المستشفى اللي انتقلت لها ملك دكتور قريبي، حكيت له كل التفاصيل وبشجاعة نادرة قرر مساعدتنا، كان طبعًا سهل وضع جثة تانية مكاني وجنازة محترمة طارق بكى

فيها بحرارة عشان يكمل حبكته القذرة. بعد كدا بدأت أنا ونور في الترتيب والتخطيط للوصول للمقبرة قبلهم.

صمت قليلًا وهو يبتلع ريقه من فرط لهاثه جرَّاء الأحداث المتلاحقة:

– لكن مع الأسف كانوا أسرع مننا، ووصلوا المقبرة قبلنا، ولولا لطف ربنا ووجودك هناك يا خميس كان كل حاجة ضاعت للأبد.

استولى الذهول على خميس وهو يُصغي باهتمام ومخيون يستطرد:

– بعد هروبك حاولت أوصل لك أكتر من مرة لكن فشلت، آخرها كان الشخصين اللي طاردوك في المحطة كان هدفهم مساعدتك وحمايتك من طارق، لكن مع الأسف لحظتها أنت اعتقدت العكس. لكن طارق قدم لنا خدمة عظيمة بدون قصده لما طلب من نور تقابلك معاه في قسم الشرطة عشان يقنعك إنه فعلًا بيحاول يساعدك ويصرف أي شبهة عنه، وفي نفس الوقت يهددك عن طريق سوزان، لكن نور أحسنت التصرف ووصلت لك الرسالة والحمد لله النتيجة إنك معانا دلوقتي.

وَجَمَ خميس وهو يقول:

– بس بعد ما الأمور اتأزمت وهيام هتروح مني.

هزَّ مخيون رأسه نافيًا بثقة:

– متقلقش مراتك هترجع بالسلامة، خيوط اللعبة كلها بقت دلوقتي في إيدينا واحنا المتحكمين حاليًا في سير الأحداث.

سأله خميس بفضول ولهفة:

– وده هيرجع هيام إزاي؟

– هقولك، لكن أهم حاجة تنفذ الخطة اللي هقولك عليها بحذافيرها، ومتقلقش نور ورجالتنا هيكونوا معاك.

– وإيه الخطة يا دكتور؟

خلع نظارته وفرك عينيه لثوانٍ ثم أعاد وضع النظارة وهو يقول:

– أهم حاجة تكسب ثقة طارق أكتر، ولازم تقنعه إنك فعلًا هتسلم البرديات لسوزان عشان ترجع مراتك، هيحاول هو يقنعك بالتخلي عن القرار ده عشان يتأكد من نواياك، لكن أنت لازم تصر على أنك هتسلمهم البرديات، وده هيتيح لنا عامل إلهاء قوي.

– يعني إيه؟

تساءل خميس بعدم فهم فأجابه مخيون موضحًا:

– طارق مش ممكن يخطر على باله إنك ممكن تغير البرديات ببرديات تانية وطبعًا استحالة يجي بنفسه يستلمها منك، في الغالب هيبعت سوزان.

بدا القلق على وجه خميس فيما تساءلت نور بتخوُّف:

– وسوزان مش هتقدر تفرق بين الأصلي والمزور؟

ابتسم مخيون:

– أنا هبدل البرديات ببرديات تانية أصلية، لكنها برديات عادية فيها نصوص مصرية قديمة.

تساءلت نور مجددًا:

– وسوزان مش ممكن تكشف الموضوع ده؟

أجابها بثقة:

– سوزان عندها خبرة تقدر من خلالها تفرق بين البرديات الأصلية والمزورة بمجرد النظر لكنها متعرفش تقرأ اللغة المصرية القديمة وهيكون كل همها التأكد إن البرديات فعلًا حقيقية وبس.

صمت قليلًا وهو يُمعن التفكير ثم قال:

– ونقطة كمان مهمة جدًّا، لازم تطلب مبلغ كبير من سوزان مقابل البرديات، مليون جنيه مثلًا، ده هيدي مصداقية لهم إنك فعلًا هتسلمهم البرديات.

تجلَّى الذهول على وجه خميس:

– مليون جنيه؟ وهيوافقوا؟

– بنسبة كبيرة هيوافقوا. البرديات قيمتها عندهم لا تقدر بمال، وممكن يدفعوا أي مبلغ مقابل الحصول عليها.

فَرَكَ خميس كفيه بعصبية:

– وبعد كدا هنعمل إيه؟ حتى لو نجحت الخطة ورجعت هيام، هتكون رقابنا برضه تحت أيديهم.

ابتسم مخيون:

– ينجح الجزء ده من الخطة ويتبقى الجزء الأخير.

– اللي هو إيه؟

ضحك مداعبًا خميسًا:

– يقع الجوست في المصيدة.

* * *

– وأديك وقعت يا جوست.

قالها خميس وهو يُنهي رواية ما حدث لطارق الذي استولى عليه ذُعرٌ هائل وشعُر بجفاف ريقه فصاح بحدَّة وعصبية:

– بتقول إيه يا مجنون؟ دي لعبة بتلعبها أنت ونور، مخيون مات .

ابتسم خميس بثقة:

– هتتأكد بنفسك دلوقتي إنه عايش وهو جاي ياخدك مع الحكومة لحبل المشنقة، أنت خلاص وقعت يا جوست، ونسيت أقولك صحيح الحربايه سوزان سبقتك من شوية على القسم وزمانهم بيأفقوا لها هناك، زمان قفاها ورم اسألني أنا.

عَلَتْ ضحكته وهو يقول بسذاجة:

– والله ونحو الأمية غلبت الجامعة.

توترت أعصاب طارق وفقد السيطرة على نفسه وبدأ جسده يرتجف فصرخ بغضب شديد والمَقْت والكراهية يشعَّان من عينيه:

– وأنت وقعت برضه يا خميس، أنا هطلع من هنا على السجن، وأنت على القبر.

قالها وراح يصوِّب سلاحه ناحية صدر خميس الذي لم يهتز أو يبدُ عليه أيُّ شعور بالخوف فقط ابتسم في ثقة قائلًا:

– أهو حتى دي الدكتور مخيون عمل حسابها، ولبسني قميص ضد الرصاص يعني اضرب براحتك يا جوست.

جحظت عينا طارق وضربه الذهول فهتف بجزع هائل غير مصدِّق ما يسمع:

- يا ابن الكلب يا غبي، القميص حامي صدرك، طب راسك إيه اللي حاميها.

انتقل الذهول إلى خميس الذي خبط على رأسه قائلًا ببلاهة وفزع:

- يا داهية دقي، تاهت مني إزاي دي.

لم يمهلْه طارق ليُكمل صرخ بغضب وأطلق رصاصة مَرَقَتْ بجوار رأس خميس الذي ارتمى أرضًا محتميًا بأريكة بجواره صارخًا بذُعر:

- الحقوني الحقوني يا جدعان.

انتفض طارق بجنون وهو يُطلق رصاصاته ناحية الأريكة:

- بقى نهايتي تكون على إيد ساذج زيك.

أحْنَقتْ الكلمات خميس فلوَّح بسبابته من خلف الأريكة:

- متغلطش في السواذج، أنت تطول تكون من السواذج.

اقترب طارق أكثر فألقى عليه خميس مقعدًا خشبيًّا تفاداه بخِفَّة ودار حول الأريكة مصوِّبًا مسدسه تجاه رأس خميس، لكن في تلك اللحظة سطعت الأضواء المُبهرة فيما اندفع أكثر من خمسة جنود وأحاطوا بطارق مُصوِّبين أسلحتهم نحوه وضابط يهتف بصرامة:

- ارمي سلاحك يا طارق.

صدر صرير عالٍ فيما راح جزء خشبيٌّ من الجدار ينزاح ببطء كاشفًا عن وحدة تصوير كاملة يقف بجوارهم محروس وزغلول وهيام الذين أخذوا

يلوِّحون إلى خميس بسعادة. جُنَّ جنون طارق فراح يصوِّب مسدسه يمنة ويسرة بعصبية رهيبة وبغتة حانت منه التفاتة ناحية آخر الحجرة ليلمح مخيونًا ونور يقفان يرمقانه بنظرة انتصار وظفر بالغة. شعر بالانهيار والانكسار البالغ، طفحت مرارة الهزيمة بداخله وسمَّمت دماءه، فأطلق صرخة غضب عاتية ورفع مسدسه ناحية رأسه وأطلق رصاصته الأخيرة ليهوي جثة هامدة وخميس يهتف بذهول:

- يخرب بيتك غاوي ضرب نار على الراس حتى راسك.

* * *

انتهت أصعب ليلة في حياة المارشال وانطوت صفحة لم يظن أنها ستُطوى بهذا الشكل. في الصباح وفي ميدان الحسين وقف الثلاثة مع مخيون ونور التي سألت خميسًا:

- خلاص ناوي ترجع البلد يا مارشال؟

أومأ برأسه إيجابًا:

- مصر صعبة وكبيرة علينا، هرجع البلد أنا وهيام وزغلول نعمل مشروع كبير نشتغل كلنا فيه.

مازحته نور:

- ومشروع إيه اللي في دماغك يا مارشال؟

- أي مشروع ينفع أشتغل فيه غفير.

ضجُّوا بالضحك عدا هيام التي وكزتْه قائلة بحزم:

- تشتغل أي حاجة غير غفير، مش كفاية اللي حصلنا المرة دي.

عادوا للضحك مجددًّا حتى رَبَتَ مخيون على كتف خميس:

– إيه يا بطل، أظن أنا وفيت بوعدي ورجعت هيام، تُوفي أنت بقى بوعدك وتديني البرديات.

ابتسم خميس:

– وأنا عند وعدي.

قالها وتوجَّه والبقية من خلفه نحو جامع الحسين. قصد العامل المختصَّ بوضع أحذية المصلين في دولاب خشبيٍّ على عتبة باب الجامع:

– السلام عليكم يا عم.

– وعليكم السلام.

– أومال فين عم عبد الله؟

– تعيش أنت، مات امبارح بالليل.

– يا داهية دقي.

قالها خميس بهَلَع فيما أُصيب الباقون بحالة فزع رهيبة وخميس يسأل:

– إزاي الكلام ده؟ أنا ليَّا أمانة عنده.

غمغم الرجل بلا مبالاة وهو يُواصل عمله:

– الله يعوض عليك.

– الله يعوض على مصر كلها.

قالها بانهيار، فيما اختفت الدماء من وجه مخيون وانعقد لسانه فيما تصلَّبت ملامح نور تمامًا من شدة الصدمة. بالكاد نطق مخيون بلسان مرتعش:

– أنت كنت شايل البرديات عند عامل الأحذية هنا يا خميس؟

ردَّ ببساطة:

– أيوه. أعمل إيه بس، كنا بنشيلها في لباس زغلول والناس كانت بتزعل.

– بالذات سوزان.

قالها زغلول بسذاجة وهو يضحك فيما صاحت نور بانهيار تام:

– أنت مجنون يا خميس؟ أنت أصلًا تعرف الرجل ده عشان تشيل عنده حاجة؟

هزَّ كتفيه ببساطة:

– لأ، بس مكنش فيه مكان أمان غير هنا، والرجل الله يرحمه وشه كان سمح.

ترنَّح مخيون وكاد ينهار أرضًا لولا أن ارتكن بظهره إلى جدار المسجد والحسرة تكسو كل ذرة في ملامحه، فيما بدأت نور تبكي بنحيب وسط ذهول ودهشة زغلول وهيام التي قالت في خُفوت وهي تضحك بهستيريا:

– يا لهوي على نسوانك يا مصر، بتعيط على شوية ورق قديم كانوا في لباسك يا زغلول.

كتم زغلول ضحكته بيده ووَكَزَها في كتفها لتكُفَّ عن الضحك بينما صاح خميس بجدية:

– خلاص، تاهت ولقيناها، احنا نشوف مقبرة تانية يمكن تلاقي فيها نفس البرديات دي، ولا إيه؟

قالها وهو يدير عينيه في مخيون ونور اللذين رمقاه بجزع هائل. لكن بغتة وضع أحدهم يده على كتف خميس قائلًا:

– كنت فين بقالك يومين يا خميس؟

استدار خميس ناحيته بذهول وصاح بفرحة عارمة:

– عم عبد الله، أنت صحيت من الموت.

– أعوذ بالله هو أنا كنت مت أصلًا.

بدأت الدماء تجري في العروق مجددًا وهم يتابعون حوار خميس مع الرجل:

– أومال الرجل اللي هناك ده جته رزية بيقول إنك مت ليه؟

ضحك الرجل:

– تلاقيه يقصد عمك عبد الله الفيومي، كان شغال معانا ومات امبارح.

– الله يرحمه ويرحمك فين الأمانة؟

– في الحفظ والصون.

توجه الرجل ناحية رفٍّ خشبيٍّ مقابل لباب المسجد عليه عدد من المصاحف. رفع مصحفًا كبيرًا، وسحب من تحته لفافات البردي وناولها لخميس، وسط ذهول نور ومخيون اللذين لم يُصدِّقا أعينهما، ولم يتخيلا أن البرديات التي أُريقت من أجلها الدماء وتصارع العديد من أجلها كانت مُخبَّأة فوق رفٍّ خشبيٍّ أمام أحد المساجد. أخذ خميس البرديات وناولها لمخيون الذي تلقَّفها كَمَنْ يتلقَّف وليده بحالة من القداسة والتوقير والمهابة التي تليق بقدْرها وقيمتها. راح يتحسَّسها برفق ويتشمَّمها بنشوة عاتية

وابتهاج فائق وضمَّها إلى صدره فيما راحت نور تربت على كتفه بسعادة وغِبطة عارمة. اكتسى وجه زغلول بحُمرة الخجل ووَكَزَ خميسًا هامسًا له في غيظ:

- كان لازم يعني تجيب سيرة اللباس.

تمت بحمد الله

تتمة (1)

هبَّت رياح ساخنة لافحة على تلك المنطقة الجبلية الوعْرة. لم تجد شيئًا لتُحرِّكه، حتى حبَّات الرمال لم يكن لها وجود. فقط صخور حادَّة وقاسية تنعكس عليها أشعة الشمس الملتهبة لتزيد توهجها واحمرارها. منذ قرون بعيدة والسكان الأوائل تتحاشى مجرد الاقتراب من هذا المكان. نسجوا حوله الأساطير، وزعموا في إحداها أن الآلهة تتجلَّى على أحد جبال المنطقة وتتخذه سكنًا لها. أطلقوا عليه اسم الجبل المقدس. كانت صخوره حمراء داكنة، والجبل شاهق عالٍ كأن قمته توشك أن تعانق السماء. في تلك اللحظة كانت الحرارة الملتهبة تكاد تذيب الصخر وتُصهره، وكأن كتلة الشمس النارية تصبُّ حرارتها بالكامل على تلك الجبال من دون غيرها. لكن العجيب أن داخل الجبل المقدس وفي أعماق أعماقه كان الجو باردًا مُنعشًا، حيث امتدت داخل الجبل وعلى مدى البصر خضرة منبسطة وأشجار يانعة حول نبع ماء صافٍ رَقراق يجلس أمامه الشيخ خضر بعمامته الخضراء وجلبابه الأبيض ووجهه المُضيء مستندًا إلى شجرة ضخمة متأملًا النَّبع بعينين خاشعتين دامعتين وبصوت عميق شجيٍّ رائق راح يتلو:

- ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾.

* * *

تتمة (2)

ثلاثة أشهر مرت على قاسم مُذْ فقد الكُتيِّب والبردية. اسودَّت الدنيا في عينيه وصارت حياته نغصًا ونكدًا. مرت عليه الذكرى فآلمت قلبه وأدمته وقدماه تخطوان في الظلام هاجسة مرتعشة. احتوته الظلمة وابتلعته تمامًا. شعر كما لو صار قديسًا مخذولًا أو ملاكًا منفيًّا. عبثًا أخذ يُحرِّك مِشعله يمنة ويسرة محاولًا تبديد الدُّجْنة وإزاحتها، لكن حتى النيران عجزت عن ذلك. أخذت البرودة تتسلل ببطء إلى داخله. قرُّ عنيف أجبره على الارتجاف، فألقى المشعل أرضًا وراح يضم ثيابه إلى جسده محاولًا تلمُّس الدفء. ضرب الزمهرير قلبه فشهق من شدة الألم وطفق يتحرك متخبطًا في الجدران حوله بعنف. كادت أنفاسه تخمُد من شدة القَرْس، أوشك على الاستسلام والتهالك أرضًا راجيًا نهاية سريعة. لكنه لمح بصيص ضوء يأتي من بعيد، منبعثًا من نهاية الممر الجبليِّ أمامه. راوده الأمل ودفع في عروقه إكسيرًا ما، فاستجمع قواه وحثَّ خُطاه وراح يركُض نحوه. بدأ الممر يتسع والنور يتعاظم حتى ابتلعه بأكمله. أغمض عينيه وترك جسده يسبح في الفضاء المنير. شعر بدفء يحتوي جسده وبسكينة تحوط قلبه. فتح عينيه ببطء ليُطالع وجه الشيخ خضر الباسم، جالسًا مستندًا إلى شجرة عظيمة تتدلَّى غصونها وتحيط بهم حتى تلامس بأطرافها نبع ماء صافٍ. أخذ قاسم يهتف بلهفة:

- أغِثني يا سيدي.

- أبشر، جاءك الغوث.

بكى وانتحب وتهدَّج صوته وهو يقول:

– أمانة ضيعتها.

– من يحمل أمانته في قلبه لا تضيع أبدًا.

– دُلَّني يا سيدي، السدف دامس، وقد ضل بصري ولم يهتدِ.

– الظلام يطمس البصر لا البصيرة.

قالها الشيخ خضر وراح يحدق في عيني قاسم بقوة وهو يقول:

– دقِّق النظر بقلبك لا بعينك.

سَرَتْ رعشة في جسد قاسم واهتزَّ وجدانه وطفق يُمعن النظر في عيني الشيخ، هُنَيْهَة وتراءت له ورقة بردي، شهق بذهول وراح يُدقق النظر فأخذت الخارطة تتضح رويدًا رويدًا بخطوطها ورموزها. طفق يمر عليها ببصره ودقات قلبه تتسارع ومعها يعلو نَشيجُه ونحيبه. شعُر بدوار عنيف كما لو أنه يسقط في هُوَّة عميقة لا قرار لها. بدأت الخريطة تتلاشى ومعها الشيخ خضر. أخذ جسده يهتز بقوة وثُقلٌ حادٌّ يهوي على وجهه فانتبه فجأة ليجد نفسه على فراشه والبحَّار يلْهث بشدة وهو يواصل صفعه على وجهه برفق. تساءل بوهن بالغ ورؤيته ما زالت غائمة بعض الشيء:

– ما الذي يجري؟

تنفَّس البحار الصُّعَداء وقال:

– كِدتَ تقتلني قلقًا عليك أيها المصريُّ، حمدًا لله على سلامتك.

– سلامتي؟

تساءل مستغربًا وهو يحاول النهوض بصعوبة وكل ذرة في جسده تطفح ألمًا. عاونه البحَّار وأجلسه:

– ثلاثة أيام تعاني من حُمَّى شديدة، جعلتْك تُهذي حتى ظننتك تحتضر.

تأمله قاسم بذهول قبل أن يهزَّ رأسه قائلًا:

– ناولني شربة ماء.

شرب حتى ارتوى ثم استند بظهره إلى الحائط خلفه وأخذ يلتقط أنفاسه قبل أن يقول:

– ناولْني ورقة وقلمًا ودواة.

– ماذا؟ أهذا وقته؟

قالها البحَّار مدهوشًا، فأجابه قاسم بثقة:

– ستدرك كل شيء لاحقًا، هيَّا أسرعْ.

هبَّ سريعًا مُحضرًا ما طلبه قاسم الذي أمسك بالورقة والقلم وراح يخطُّ عليها خطوطًا ورموزًا وعين البحَّار تُتابعه بذهول وفضول طوال ساعة كاملة وحين فرغ صرخ الأندلسيُّ مشدوهًا:

– يا إلهي، إنها الخارطة، كيف فعلتها؟!

ابتسم قاسم بوَهَنٍ وهو يضع القلم جانبًا:

– لا يهم ذلك، الأهم أني أوقن الآن أن خلفها سرًّا عظيمًا للغاية، شيئًا لا مثيل له.

ضاقت عينا البحَّار وراح يمر بأصابعه على الخارطة قائلًا:

– إلى أي شيء تقود؟

ابتسم قاسم بوهن وقال:

– ما لم أُخبر به القشتاليَّ اللعين أني أعرف أنها خارطة بحرية.

فَغَرَ البحار فاه من الدهشة والتقط الخارطة مُمعنًا فيها النظر:

– بحرية؟

– نعم أيها البحَّار الأندلسيُّ، لتُرِنا مهاراتك إذن.

رَبَتَ البحَّار على صدره وقال بزهوٍ:

– الخشاش بن سعيد بن أسود سيقودك إلى أبعد مما تتخيل أيها المصريُّ.

رَبَتَ قاسم على كتفه برفق وقال:

– حسنًا أيها الخشخاش، أتعافى ونبدأ سويًّا بحثنا هذا.

– لكن رموزها كيف نفكها؟

ارتسمت على وجه قاسم ابتسامة واسعة والتقط حقيبته من جواره ودسَّ يده داخلها وهو يقول:

– ما لم أُخبر به القشتاليَّ اللعين أيضًا أن الراهب باخوميوس أعطاني كتابًا لفك شفرة الخريطة.

قالها وهو يُخرج كتابًا ضخمًا جلده أصفر فاقع نُقش عليه بخط أنيق رشيق (حَلُّ الرموز وبَرءُ الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام) لذي النون المصريِّ.

* * *

تتمة (3)

ذكر المسعوديُّ في كتابه مُروج الذهب قصة الخشخاش بن سعيد بن أسود، البحَّار الأندلسيَّ، ووصوله إلى أرض نائية مجهولة برفقة فتيان من قرطبة وعودته إلى الأندلس محمَّلًا بأعاجيب ونفائس لم تُرَ من قبل. وقد رجَّح المؤرخون بناء على خط سير الرحلة وما جلبوه معهم من مواد، أنها وصلت إلى مكان ما في الأمريكتين.

قال المسعوديُّ: (وعلى الحدِّ بين البحرين أعني بحر الروم وبحر أوقيانوس المنارة النحاس، والحجارة التي بناها هرقل الجبار، على أعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائي لجميع الداخلين إلى ذلك البحر بحر الروم؛ إذ كان بحر لا تجري فيه جارية ولا عمارة فيه، ولا حيوان ناطق يسكنه، ولا يُحاط بمقداره، ولا تُحدرى غايته، ولا يُعلم منتهاه، وهو بحر الظلمات والأخضر والمحيط وقد قيل إن المنارة على غير هذا الزقاق، بل في جزير من جزائر بحر أوقيانوس المحيط وسواحله. وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار، وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا أخبار الزمان في أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه، ومن نجا منهم، ومن تلف، وما شاهدوا منه، وما رأوا، وأن منهم رجلًا من أهل الأندلس يقال له خشخاش، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها فجمع جماعة من أحداثها، وركب بهم مراكب استعدها في هذا البحر المحيط، فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة، وخبره مشهور عند أهل الأندلس). مروج الذهب للمسعوديِّ.

تتمة (4)

صخرة بلايو

قال ابن عذاري المراكشيُّ في كتابه البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب متناولًا فتوحات والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي عام 735 ميلاديًّا.

وهو الذي فتح مدينة أربونة، وافتتح جليقية وبنبلونة، وأسكنها المسلمين. وعمَّت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة؛ فإنه لجأ إليها ملك جليقية، وكان بها في ثلاثمائة رجل. فما زال المسلمون يُضيِّقون عليهم، حتى صاروا ثلاثين رجلًا، وحتى فنيت أزودتهم، ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه في خروق الصخرة. وأعيا المسلمين أمرهم؛ فتركوهم.

كانت تلك الحادثة التي أشار إليها ابن عذاري هي نقطة الانطلاق التي بدأت منها الممالك المسيحية، فبعد أن فك المسلمون حصارهم قويت معنويات بلايو ومن معه وتزايدت أعدادهم وانضم إليها فلول القوط، حتى توطَّد وجودهم في تلك المنطقة التي تكونت فيها نواة مملكة أشتوريش التي انبثقت منها عدة ممالك مسيحية أخرى تَمازجت وتوحَّدت جهودها من أجل القضاء على الوجود الإسلاميِّ في الأندلس وهو ما تحقق لهم بعد قرون.

* * *

دار البشير